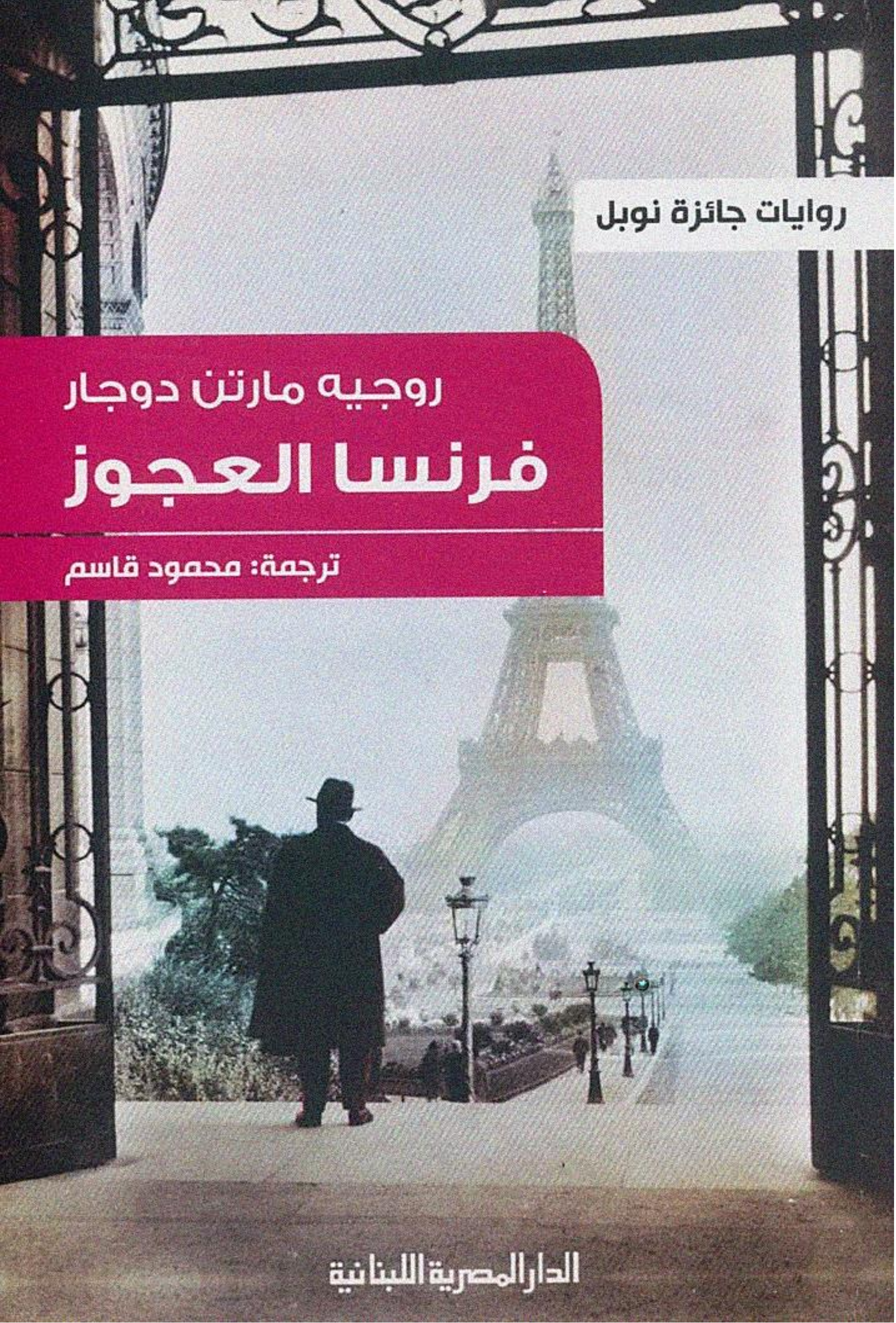
روايات جائزة نوبل

روجيه مارتن دوجار

فرنسا العجوز

ترجمة: محمود قاسم



الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

فرنسا العجوز

VIEILLE FRANCE

تاليف

روجيه مارتن دوجار

ROGER MARTIN DU GARD

نوبـــل 1937

ترجـمة

محمود قاســم

الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

فرنسا العجوز

VIEILLE FRANCE

مارتن جار، روجيه.

فرنسا العجوز VIEILLE FRANCE : تأليف روجيه مارتن دوجار؛ ترجمة محمود قاسم. ـ ط1. ـ القاهرة :الدار المصرية اللبنانية، 2014.

184 ص؛ 20 سم.

تدمك : 1 - 793 - 427 - 977 - 978

1 ـ القصص الفرنسية.

أ ـ قاسم، محمود (مترجم). 296

رقم الإيداع : 11833 / 2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة.

تليفون: 23910250 202+

فاكس: 23909618 202+ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى : شعبان 1435 هــ يونيو 2014 م

إهـــــداء

إلى كريســـتين وإلى مارسـيل كـوپيــه

ر.م.ج

استيقاظ موزع البريد

1

حك «جوانيو» عود ثقاب

استدارت «لاميلي» نحو الحائط بغضب:

- «كم الساعة؟»

- «وربع»

زمجر وهو يغادر السرير، ويدفع مصراعي النافذة، أشرقت الشمس مبكرة في نهاية شهر يوليو. يالها من أمور. السماء وردية، تورد البيوت النائمة وتورد أيضا أرض المكان الصحراوي، حيث تتحدد ظلال الأشجار، وكأننا في السماء.

ارتدى «جوانيو» بنطاله، وأسرع نحو الفناء وهو يلعق مياهه. إنه شيطان كبير، فلاح يميل إلى الشقرة، حيث يمتزج التراب والريح والشمس بصبغ البشرة.

وفي خلال ثلاث دقائق، كان مستعدا، متأهبا، ممشطا بتسريحة تناسبه حتى المساء.

نامت «لاميلي» بقميصها في هذا الحر، ومدت كتفها المكتنز خارج الغطاء:

- «لا تُحدث ضجة، حتى لا يستيقظ چوزيف».

نام صبي النجار في أعلى، في الصندرة التي لم تعد تستخدم في شيء ما دام العامل ليس له ولد.

لم يَرُد «جوانيو»، تجنب أن يوقظ الغلام، وتجنب الغلام أن يستيقظ. فهو الآن واقف بقميصه حافي القدمين والأذن تترقب.

وما إن سمع العامل يرحل حتى زمجر كقرد، عند باب الحجرة.

- «كم الساعة الآن يا سيدة «جوانيو»؟».

انتظرته، قلقة وقد ثبتت عينيها على اللوحة التي لا تتحرك، وقالت مرة واحدة:

- «تقريبًا ونصف».

رأته عبر الباب الزجاجي واقفا يحك شعره بيده، وبقميصه المفكوك حول جسمه وأهدابه المرتعدة، وشفتيه الغليظتين المفتوحتين. قال:

- «حسنًا».

لكنه ظل هناك لحظة، يستمع مثلك إلى الصمت.. ثم في ثلاث قفزات، اخترق الريح وعاد يتسلق صندرته - القذر.

سمعته السيدة «جوانيو» يغلق بابه ويلقي بنفسه على سريره،

فتنهدت وهي تتلوى وتتثاءب. ثم راحت تغلق المزلاج ودخلت الحمام لتغتسل وتتزين.

كان مكتب «برير موبيرو» يقع على مسافة خمس دقائق بالدراجة من المحطة، لكن محطة «موبيرو» تقع على بعد خمس دقائق بالضبط من المكتب ناحية «بوالوران».

حمل «جوانيو» حقيبة البريد فوق كتفه، ودون أن يحدث ضجة دخل إلى مَحالِّ الصيادين.

إنها قرية طولية، ليس لها شارع جانبي سوى الطريق الذي يشقها، ويتسع - على مضض - في مركز القرية كي يحوط الكنيسة. في هذه الساعة كانت موبيرو لا تزال نائمة. مثل كافتيريا الميدان (بوس) المعروفة بأنها تستيقظ مبكرا، لم تكن قد فتحت نوافذها المغلقة بعد. حتى الخباز كان مغلقًا أبوابه التي تلاصق أبواب الخبازين الآخرين. كان الخبازان هما العجوزين: «ميرلاڤين» الأكبر، و«ميرلاڤين» الأصغر، اللذين يتناوبان الليل في إعداد الخبز لكنهما في الصباح الباكر ينامان، أحدهما ينتهي من الطهي، أما الآخر فلم يكن قد بدأ البيع بعد.

كان «فيجو» يستيقظ دوما في ساعة مبكرة، إنه يكسر حزمته أمام مجزرته قبل أن يذهب إلى عمله. صاح «جوانيو»:

- «أهلا يا أخي».

أحنى عامل السكة الحديد ظهره، وأجاب بهز رأسه، وظل محني العنق، كأنه يحمل جوال دقيق.

لقد هرب فيجو في العام الماضي سبعة عشر يوما دون أن تصل عنه أخبار. وتدخلت الشرطة، اضطرت أن تعتبره غائبا بسبب انهيار الجسور، والهزات الأرضية. ثم - ذات صباح جميل - شوهد وسط الطريق، عيناه في محجريهما، ودراجته في الحفرة، وكيس نقوده في العشب. لم يصدق أحد كلمة واحدة من الحكاية، ولا حتى «جوانيو». ترى هل أفرط في الشراب؟ هل رحل وحده؟ أراد أن يختفي بشكل خيالي؟ كل شيء ماثل هناك: أبناؤه الأربعة، زوجته المريضة، رؤساؤه، ونقالته الحديدية. حاول أن ينسى كل شيء، وأن يعاود حياته بشكل أفضل، لكن ما الذي أتى به إلى هذه الحصاة؟ هل هو الندم؟ أم المأساة؟ أم العادة؟ لعله الحظ الذي ساقه إلى السيد «إرنالدون»، العمدة كي يمكّنه من الحصول عليه، بدافع عائلي. فالمفتش لم يكف عن تهديده بأنه سيحطم كليتيه.

ها هي البيوت الأخيرة، والمقبرة أيضًا وسط المقابر، يشعر دوما بالسعادة، شاهد قبر أنزي، كم هاجر الألحاد. إنه صديق قديم، نوع من البارومتر. في أيام المطر يبدو معتمًا ويمتلئ بالضباب، يكتسي باللون اللازوردي، لكن عند شروق الشمس يصبح أزرق اللون. هذا الحيوان يحب الأفق الأزرق، وقبعته اللامعة المعفرة بتراب الزجاج.

لم تبقَ سوى دفعة واحدة كي يصل إلى «يوليت» فوق الجسر الخشبي الصغير. ثم يعبره – منتعشًا دائمًا – هذا الطرف من المستنقع، الواقع بين ضفتي النهر الكبير والصغير.

ويسبح أيضًا في بخار الفجر، ثم زخم من الدفقات كي يعبر فوق ظهر الحمار من الجسر الحجري القديم، إنه الآن يتجه نحو المحطة عابرا الحقول حيث تحوم الغربان. بدأت الطبيعة ذات مظهر نقي، منذ أول الصباح، وسط زقزقة الطيور المتحررة. وقد أعلنت الحرارة عن نفسها.

انكشفت بودارها في أعالي السماء. وعلى الطريق بدا الجو لطيفا، ساكنا، ومنعشا. مثل أيام الربيع الجميلة. وعشب حواف الطريق المغبر الذي اقتضمته الخراف، وقد حمرت شمس البارحة، بدا كأنه استغل هدنة الليل، والتزهير، كي يعاود الاخضرار.

راح ساعي البريد يصعد بقفزات كبيرة ودراجته في يده. يعرف كل تعرجات الأرض، وكل ترميمات الممشى، وعدد الحصى، وكل دغل صغير. لم يشغله شيء عن شروده الداخلي، لكن في انحناءة الطريق كان يتوقف دائما بضع ثوان ليطلق نظرة على مرتفعات «بوا لوران»، في الناحية التي توجد فيها كرمته. بين بؤرة مورفة الخضرة، مستديرة، وبين صف من الأشجار يقع في مهب الريح.

القطار لا يصل إلا بعد خمس وخمسين دقيقة. ودائما ما يصل «جوانيو» قبله.

فطوال اثني عشر عاما، لم يفته القطار سوى مرة واحدة. بثلاث دقائق في ذلك اليوم الذي اعتقد «جوانيو» أن المخبز يحترق. ولم يعرف قط أن أسرة «لافيني» وأبناءها الصغار استطاعوا حرقها في هذه الليلة في فرنهم. بالتأكيد، هناك شيء آخر، لعل الأخشاب قد احترقت، أو بعض الجمرات القديمة، أو حفنة من الغبار. هذا ما يقولونه؟ كل شيء ممكن فهذا يسمم الجثث العفنة.

ها هي المحطة ذات الفلنكات البارزة، يصعد قليل من الدخان من سقفها، بين أوراق الصبار، وقد راح ناظر المحطة الأعزب يشعل نيرانه ليعد القهوة.

في قطار الصباح - فلامار، رجل المجموعة

2 كانت صالة الانتظار مغلقة منذ البارحة، قد تخفي عفونة بداخلها، وقذارة أيضًا. أسفل عنبر البخار، كدس «فلامار» رجل الفريق الأشبه بهرقل فوق عربته سلال البضاعة الطازجة مثلما يفعل كل صباح، بينما ساعده «لوتر» في إحضار البضاعة من الشاحنة.

تقدم «جوانيو» ناحية الرجال الثلاثة. وقال:

- «أخبرتكم أن الجو سيكون حارًّا طيلة النهار على الطريق»!

زمجر هرقل، وهو يتصبب في عرقه، دون أن يتوقف عن عمله:

- «هذا الجو الداعر!».

أما «لوتر» فقد احتفظ بإذعانه، رغم العرق الذي ينساب على وجهه المسطح وراح المزيد من شعاع الشمس يضرب، لعل هذا أفضل للبضاعة الطازجة حيث يكفي أن ترويها. فالمزارع يمتلك - في وسط حديقته - نبعًا لا ينضب.

سحب «فلامار» حمولة الشمام زكية الرائحة نحو الميزان، بينما توجه «لوتر» تجاه مكتبه لمراجعة أوراقه.

ظل ساعي البريد وحده مع الكاتب يلف سيجارته بكسل.

- «نعم، سوف تلتهب الشمس بقسوة! لقد أخبرتك بذلك يا عزيزي».

ها هو يناديه «عزيزي». إنه شخص جاء من «بافاريا» بسبب الحرب، له جسم عجيب، نما بشكل غريب من كل الأنحاء. فرأسه ثقيل وقد انقعص فوق كتفه. أما العنق فأبيض طويل، يجعله أشبه بأعناق دواجن الحقل الملوية التي أصبحت تعاني الألم لمرورها في الحظيرة. ورغم ذلك فعيناها يملأهما الحلم، وله وجه رائع، تلفه لحية مسيحية. يجلس فوق درجة سلم ويغني بصوت خفيض، أما طرف قبعته المصنوعة من قش فتبدو أشبه بهالة. ونظرته الذهبية ظلت مركزة على الساعي. تلاشت ابتسامته ببطء. فكرر كأنه يغني.. «أهلًا، يا سيد «جوانيو»». اقترب ساعي البريد من فلامار، كان رجل الفريق وحده، أمام ميزانه القباني - وهو يضع الموازين - راح يعد بصوت عالٍ حتى لا يخطئ:

«مئتان واثنان وخمسون.. وعشرون.. مئتان واثنان وسبعون...»

على وجهه المجعد بدت بشرته المحمصة، وقد غاصت عيناه بين الجبهة ونتوء وجنتيه.. مستديرتان، صغيرتان، زرقاوان وغبيتان: غباء سكير، غباء فكرة محدودة.

قال عندما أنهى فكرته:

- «يجب أن أتحدث إليك».

تتبعه «جوانيو» نحو ورشة المصابيح.

في هذه البناية التي لا تمثل لكل الناس سوى المحطة. احتفظ رجل الفريق بالنسبة له بركن الوقود، بين قطع القماش المشحمة، والمصابيح التي ترشح. يمكنه أن ينفخ بهدوء ويترك نفسه لوساوسه، فإنه كل يوم - قبل أول قطار - يأخذ ساعي البريد كي يلتهم معه قطعة كعك. فزوجته تعتني به. وسلته دائما تكفي شخصين، يستغل «جوانيو» هذا الأمر منذ عام. ففي كل صباح يقتنص إفطاره.

فوق الخشب القذر من الرشح، وضع «فلامار» الخبز واللبن وعلبة السردين التي فتحها بضربة واحدة. جلس الرجلان أمام مقدمة الباب وقد بدأ جرس يلعلع قرعًا. علق «جوانيو»:

- «لقد ترك ميزو».

بحركة مألوفة طالما مارساها، اقتنصا شريحة الخبز باليد اليسرى كلٌّ بدوره.. «فلامار» أولًا يتبعه «جوانيو» غمسا بطرف نصل السكين الجسم المليء بالزيت الذي غمساه في خبزهما ثم قضماه قضمة كبيرة دساها تماما في الفم، وقبل أن يبدآ في مضغها، جفّف كل منهما بظهر يده، طرف شاربه.

توقف رجل الفريق عن الطعام. وانحنى قائلا:

- «إنها عنيدة، تلك الشريرة، في ترتيب الصومعة».

فكر «جوانيو» وهو يرفع السكين في الهواء لحظة، وسأل:

- «لماذا تفعل ذلك؟».

- «تقول إنها غرفة للإيجار».

أطبق «فلامار» يده على صدره وكأنه يطبق يديه، ويقرقعهما. ثم دامت لحظة صمت:

- «أما أنا.. فأقول لا».

تراجع «جوانيو» بحذر قائلًا:

- «هل يجب أن تدفع أجرة آنذاك؟».

- «ليست تلك هي المسألة، فالمرأة أجرت حساباتها، إنها تعرف كل هذا أفضل منك ومني، فهي تقول إن كل النقود المدفوعة ستعود إلـيّ، ثلاثمائة على الأقل، ثلاثمائة وخمسون من نصيبي. ولكن أن تحكم».

وأعطى للساعي الوقت كي يقدر التضحية. ويكرر، متمتمًا بين أسنانه:

- «خسارة عليَّ النقود. أنا أقول لا!».

هتف «جوانيو»:

«آيه..».

استدارا للحظة، كلٌّ ناحية الآخر، وراح كل منهما يتصفح وجه زميله.. مما قد يعكس أنهما يتبادلان الكراهية. ويبحثان فقط عن حل مشكلة. وبالمزيد من الدهاء كان على «فلامار» أن يتخلى عن التخمين بأن «جوانيو» وقع على رأسه. فقناعه المصنوع من جلد الحيوانات لم يخنه قط. فالعينان في محجريهما، في ظل الأهداب وفي منحدر الرموش. أما بالنسبة لتعبير الفم فقد كان مختفيًا أسفل شاربه العسكري. وبكل بطء، مثل آلة معقدة، سلمت كل التروس للحركة. وبدأ في المضغ، أما «فلامار» فعلى العكس فكل هذا أقلقه بعمق. لقد أصبح الأكل بالنسبة له شيئًا مختلفًا.

كان «فلامار» صف ضابط سابق في سلاح المشاة، أما ابنة عسكري الحراسة التي تزوجها فقد حصلت له على وظيفة في السكة الحديد. إنها تدير الآن محلًّا، على مسافة أربعة كيلومترات من المحطة، محلًّا معزولًا يقع في تقاطع ثلاث طرق.

تتوقف عندها السيارات. والدراجات دائما نصف واقفة. ويقال إنه بداخله، متسع للجميع. هذه المرأة هي الوحيدة التي يمكنها أن تخدع زوجها طيلة النهار. و«فلامار» يعرف ذلك جيدًا. تختمره الشكوك. لكنه حبيس الوقت. فهو يكاد ينفق من الغضب في ورشة المصابيح. أما المرأة فهي تعرف من ناحيتها كيف تستحوذ عليه. فالمحل يجلب الكثير، أكثر مما يجلب «فلامار»، ومهما قال، فهو لم يفكر جديًّا أن يتخلى عن التجارة. كي يمكنه – على الأقل –

أن يرقب المراسلات. تكلم في العام الماضي إلى ساعي البريد، وهذا يكلفه. نصف فطوره. وفي المقابل، فإن «جوانيو» جعله يرقب بحذر شديد، من هنا وهناك، بطاقة بريدية غير معيبة. صاح «فلامار» فجأة:

- «العابرون. حسنًا. ولكن إذا تركت شخصًا في الورشة ليعتني بأمورها فسوف أفلس!».

أصبح عنقه أرجوانيًّا، واستدارت نظرته، واقتحمه الجيران وانفلت منه نقيقٌ غير منتظر منه.

- «سوف ينتهي الأمر إلى أن يأخذ مني امرأتي!».

ضحك «جوانيو» ساخرًا. فهو على خطأ، فرغم بصره الحاد، وسمعه القوي فإنه لم يفهم أن شفتي هرقل تجفان، إنه شعور أشد من الغضب.. وهذا النقيق ليس سوى نحيب مؤثر.

في أعلى الباب توقف القرع تمامًا. واقترب القطار.

قام «فلامار» ومسح سكينه برغيفه وطواه:

- «حدثتك عن هذا يا «جوانيو» قبل دورتك، حتى يمكنك - وأنت تمر- أن تقول كلمتك للمرأة هناك».

قال «جوانيو»:

- «هذا يمكن أن يحدث».

ضحك في الخفاء فقد انتابته الرغبة هذا الصباح أن يتجه إلى المحل حيث لديه أمر خاص مع السيدة «فلامار».

***

انفتح باب زجاجي، وظهر ناظر المحطة بزيه المليء بالأزرار، على الرصيف، قال المحصل:

- «تحياتي، أيها الرئيس!».

رفع العجوز إصبعيه بشكل آلي وقال:

- «صباح الخير يا «جوانيو»».

إنه ودود لا ينقصه التآلف، رئيس حزين، محني الظهر، يضع يده خلف ظهره، وبوجهه الكئيب توجه كالعادة نحو مقدمة القطار.

وفي عربة «البريد» مد موظف بأكمامه الطويلة، بحقيبة ثقيلة من النافذة.

ومده «جوانيو» بحقيبته:

- «الوداع يا «برجون»! المصاريف عليك!».

كان الرجل العجوز، الأشبه بشخص كسيح، قد استند إلى الباب

وراح يفرغ غليونه في كفه، وبصق بصاقًا أسود. ولم يرد.

هناك، كانت السلال ممتلئة، أطلق «فلامار» صفارته، فصفرت العربة، وبينما القطار يتحرك، صرخ رجل، وسحب «فلامار» القضيب بجمود، وسقط قفص دجاجات نافقة، نصف ميتة، تصرخ للمرة الأخيرة وهي تصطدم بالأرض.

وراح «جوانيو» يركب دراجته.

استدار ساعي البريد إلى أوراقه، و«فلامار» إلى غرفة المصابيح.

وعلى الرصيف الخاوي، تكدست الدواجن الميتة في القفص كي تنفق تمامًا.

مكتب البريـــد

3

دقت الساعة السادسة والنصف تقريبا في بيت العمدة. حين كانت القرية تحمحم. إنه أمر قديم مألوف أشـد قوة من الكسل، وكأنه يجر الناس بلا رحمة من نومهم ليوزعهـــم مـن جـديد على حظائرهم المتموجة.

في مطبخها الواقع خلف مكتب البريد، تحركت «لاميلي»، التي اغتسـلت، وهـي تقضم قطعة مـن الخبز المدهون بشـحم الخنزير. ترى ما الذي أكسبها هذا المظهر الأنيق؟ أسنانها السليمة، أم شعرها المجعـد أم طلعتهـا البهية أم تصرفهـا؟ إنها خفيفة، بشـكل غريب، بالنسبة لامرأة قصيرة القدمين، وبدينة.

ذهـب «جوانيو» يعمـل في حديقتـه، فتوزيع الخطابـات لا يبدأ سـوى في السـاعة الثامنة. اسـتغلت «لاميلـي» الفرصـة كي تصعد إلـى المندرة لتنظيم السـرير المتدرج. إنه أمر غيـر متفق عليه. لكنها تعرف جيدًا أنه ليس سـوى قزم في السادسـة عشـرة من العمر. ففي كل صبـاح. لا يفوت «لاميلي» أن تصعـد لتهز الملاءات حيث كان ينام «چوزيف». وتعيدها إلى الفراش الدافئ والغائر.

إنها تمتلك، على الأقل، شعورًا قديمًا بالعبودية، لوجود ساعي بريد في حياتها، هذا ليس مستحيلا بالنسبة لامرأة. إذا كانت هذه المرأة تدير المكتب. فقد وجه «جوانيو» «لاميلي» لهذا. أما الشيء الأكثر صعوبة فهو أن يجعلها تتخلى عن الأطفال. فأي امرأة يمكن أن تحمل مثل كل هؤلاء الإناث، ومع ذلك، فمن السهل أن نفهم أن الأمومة ليست متناسبة مع خدمات البريد العادية، وكم بكت «لاميلي» هناك طيلة الليالي. وكان عليه أن يحتمل أن تربي حيواناتها الصغيرة، فـ«جوانيو» من ناحيته يبيعها، وهذا أمر وارد.

أما بالنسبة للباقي، فإنها سارت في الدرب، تعرف كيف تستقبل أو ترسل برقية، وتختبر التعريفات البريدية وتمارس أنواع أعمال البطاقات كافة.

ورغم القضبان، وزجاجه اللامع، فإن المكتب لم يكن سوى سجن.. أسفل الجدران توجد بعض القذارة، ولكن أعلاها مزدانة بالتعليمات، والأفيشات متناثرة الرائحة.. رائحة زاعقة.. إنها روائح الأماكن العامة في الحقيقة، يجيء إلى المكتب كثيرون مما لا يدع مجالًا للسأم أبدًا.

***

تبتعد الكنيسة بشكل طبيعي عن بيت العمدة، فالساعة أعلنت السابعة وعشر دقائق عندما قررت السيدة «فيرن» أن تقرع الأجراس.

السـيدة «فيرن» هي أخت القس، وتمسك مفتاح الكنيسة . وهي في الليل تخفيه تحت وسادتها، وفي الصباح تفتح الباب الواطئ للجناح الكنسـي وهـي أول من تدخل، تحت القبة. إنهـا لحظة لا تقارن من الكبريـاء، يحفظها الله لها دون أن يشـاركها فيهـا أحد، تتحدث إليه وكأنهـا خليلة. فهـي وحدها لديها امتياز تحطيـم الصمت بكل قرع لحذاء فوق الأرض الصماء. والمعلق على حبال الأجراس. والسائد فـوق المدينة التي لا تزال ناعمـة. فأخوها «لانجولس» لا يلحق بها إلا متأخـرًا. عندمـا تعلن لحظة القداس، بينمـا يفتتح نهاره بالأدعية وهـو يعد المذبـح، فيتتابع ظلان، ينزلقـان بين الأعمـدة ثم ينحيان خلف الآنسة «فيرن»، والآنستين «ماسو» و«سلستين».

يحضـر الثلاثـي النسـائي المقـدس بصفـة يومية إلـى المكتب، ومثل السيد القس الذي يأتي إليه أطفال جوقة طيلة الأسبوع، فإنهن لا يشعرن ببهجة في ترديد القداس، فلكل منهن دورها كل يوم.

وإذا تذكُرُ الله واحدة منهن، فإن دورة الحياة تعود دومًا، وتروح كل منهن تتنهد كأنها مذنبة عندما يتبدى.

***

مـا إن بـدأ القداس، حتى راح «جوانيو» يرتـب أدواته ويعود إلى مكتبه.

يفـرغ حقيبتـه فوق المائدة الكبيرة السـوداء ويضبـط نظارته. إنه يحـب ذلك. ويمـارس الفرز، فكل الناس هنـا، أمامه، مع لحظاتهم السـرية يشعر «جوانيو» بمتعة جديدة. ويأخذ المظاريف الواحد تلو الآخر. ويختبرها كما يسـمح وقته. ثم يروح يختم طوابعها المبللة، ويرتبهـا حسـب تاريخ وصولهـا. ويميزهـا. وبالنسـبة لأغلبها، هو يعـرف تقريبـا مكان توزيعهـا، ففي خلال اثني عشـر عامـا، وبنظرة عين، أصبح يلاحظ ويعيد ويتذكر ويخمن.

لكن من وقت لآخر، يتوقف ويمسـك خطابـا بأطراف أصابعه. ويعيـده. ويزنـه بيـن يديـه، وبنظـرة شـفافة يحـدق فيه، فـإذا أحس أنـه يطـوي سـرًّا، فإنه لا يتـردد. فهو يعرف جيـدًا أنه سـيقول كلمته الأخيـرة. وبدلًا مـن أن يعيده إلى الكومة فإنه يزلقـه بكل حيوية في جيب سـترته. ويصفي حسابه، رأسًـا برأس، وفيما بعد لا تعد هناك رسائل تنتهي بالدخول في صندوق الاعترافات.

السيد إنبرج، المؤسس

4

في الساعة الثامنة، يقرع «جوانيو» الخرج بحمالته، والكاب على الوسادة، وكلباه في المكان يعبران الميدان، وفناء المدرسة، يدخل الفصل الخاوي، وينادي:

- «السيد «إنبرج»».

في الحال يجيء المدرس ليتسلم بريده، وأيضًا بريد العمدة، لم يشأ أن يدخل «جوانيو» المطبخ، حيث تجتمع الأسرة على الفطور. لم يحدث أن قدم «إنبرج» سيجارة لساعي البريد، ولا عظمة للكلبين، ولذا فـ«جوانيو» لا يحبه. هو لم يقل شيئا ضده، ولا ضد أفكاره. لكن هذه بمنزلة بولة باردة من الشرق.

رحل «جوانيو»، فعاد المدرس إلى المطبخ، لفافات تتجفف فوق الفرن. تنطلق من الجانب الأيمن رائحة لبن رائب، والغسيل والحوض. تكدس الأبناء الثلاثة في طرف المائدة وهم يزقزقون كأنهم قد فقسوا التوهم. راحت السيدة «إنبرج»، بقميصها الفضفاض، تضحك وتزمجر على التوالي وتسكب قليلا من شراب التبيوكا في

كل قدح أمامها. سيدة ذات بشرة داكنة مثل جسدها نفسه وشعرها الدهنيين. فالإنجاب المتتالي شوهها. وهذا ما يفسر طبيعة ومظهر أطفالها الذين تأثروا بطبيعتها السوقية.

جلس السيد «إنبرج» في مكانه صامتا، ثم طوى صحيفته، ووضعها بين قدح أخته، وقدحه.

***

يتشابه السيد «إنبرج» مع أخته. فكل منهما نحيف وشاحب وأشقر، وله النظرة الصافية نفسها، وضعف البصر. والفك المدبب نفسه، وطريقة الكلام نفسها دون أن يزم أسنانه بما فيه الكفاية. والابتسامة الساخرة نفسها والضحكة نفسها الممزوجة بالازدراء والفم المغلق، والأنفاس التي تنطلق من الأنف.

من الحظ أن المدرّسة «موبيرو» هي أخت السيد «إنبرج». والحظ أنها غير متزوجة، فهي تمارس الطبخ كوظيفة. ومن الحظ أيضًا أنها تخضع لأخيها بالجزء الأغلب من أسلوبها، تستخدم مطبخها للغسيل. وفي المندرة ينام أبناء أخيها، وفيما عدا المدرس، فإن زوجته وأبناءه الثلاثة يعانون العيش في الشقق الخاصة (غرفة وحمام ومطبخ) المرخصة من الدولة.

***

أمسك «إنبرج» جريدة الحزب، ومعه أخته، لقد وحّدهما الأمل نفسه والسخط نفسه، والمرارة نفسها. راحا يقرآن أخبار العالم

الذي يبدو لهما مؤسسة أكثر ظلما وجرما. من وقت لآخر - ودون أية إشارة - يهزان معًا كتفيهما الحادتين ويسمعان الضحكة نفسها من منخريهما.

صاحت الطفلة الكبرى:

- «ماما!».

استحوذ على السيدة «إنبرج» وليدها الأخير بكل حيوية، ففتحت الباب الذي يطل على الحارة. وقرفصت على العتبة، ورفعت ذراعيها نحو الطفل أعلى السلم، كان الطفل يتقلب، ويحرك ساقيه في الشمس. تنهدت وهي تنهض «لم يعد لدي ملبس جاف ألبسه. أخيرًا. ربما يتغير كل هذا إذا تم انتخاب السيد أرنالدون».

لم يكن «إنبرج» يجهل الأمور التي تعرضها زوجته بين غيار الأبناء وانتخاب العمدة كمستشار عام. فهي تأمل أن يحصل زوجها على ترقية، ويترك هذه الوظيفة قليلة الراتب، تلح عليه عشرين مرة كل يوم أن يرفض كل هذا الأمر، لكن المدرس يعرف جيدًا أنه غير محظوظ في أن يجد شريكًا، وأن أخته يمكنها أن تكون أنسب منه. فوجود الآنسة «إنبرج» يمسك بشغاف قلبه أكثر مما يتصور. خبرتهما ومشاعرهما وطبيعتهما المشتركة، تشكل قليلًا من خيبة الأمل التي عاقبه بها زواجهما بشكل عام، ووظيفته، وتطوره البطيء في الحياة الاجتماعية.

بكل دقة، في الثامنة والنصف، في كل مدرسة، يمسح الأخوان «إنبرج» السبورة السوداء، وتبدأ الحصة. لكن حتى الساعة التاسعة، تسود الضجة المألوفة كأنه السوق ويتحرك التلاميذ ذهابًا ومجيئًا. في البداية فإن أي تأخير يعاقب عليه الآباء. ولا يتردد العمدة في رفض احتجاجاتهم رغم أنه عند توزيع كل جائزة، اعتاد أن يحيي بالتصفيق كل هذه الأسر كواجب رسمي نحو أبناء الشعب، وإن الديمقراطية متاحة للجميع. عليه أن يخضع. ويستمر المدرس والمدرسة في توزيع الدرجات الضعيفة، حسب المبدأ ودون أية مجاملة. فالمدرس والمدرسة هما الوحيدان اللذان يعلقان بعض الأهمية لواقعة الاستماع في الفصل لمدة نصف ساعة، والوحيدان اللذان يأخذان أمور التعليم الدنيوي والإجباري بجدية.

«بوس» صاحب المقهى

5

يشكل مقهى «لوكافيه تاباك» مع مكتب البريد ودار العمدة القطب الثالث الرئيسي الجذاب للمكان. فهناك دائما بريد لـ«بوس»، صاحب المقهى، وليست هذه سوى أمور يومية مألوفة، كما يبدو للعيان.

دفع «جوانيو» الباب، ودخل كلباه قبله.

- «هنا، بيك! ميرابول».

غاص الكلبان حتى منتصف أجسامهما في علبة النشوق.

قالت السيدة «بوس» بسعادة:

- «دعهما إذن».

لم يلح «جوانيو»، فقد فهم منذ زمن طويل دوره كساعي بريد، فإن تربية كلاب من هذه الفصيلة، توجب عليه أن يحب توزيع الخطابات، فهو يأخذ في الاعتبار، وبقليل من الخشية والشعور، أن كلبيه يعرفان عادات كل بيت، والمكان المضبوط لكل قمامات البلدة. فالدورة هي اختبار لهما ووجبتهما اليومية وبيع جرويه هو استفادة في مكانها.

يعتبر «بوس»، النـادل ذا الحلقوم الضخم، والجبهة المنخفضة، والعينيـن البطراكيتين، والذقن المخيفة، أكثـر أنصاره في المجلس البلدي، إنه شخص من السهل قيادته، ولكن بشكل انتقامي.

خلف حانته، التي تطل على ربوة، يقوم بتحضير سـوائله بشـكل غامـض، ويتبـرع بتقديم كـأسـين من الـروم: إنها الضريبـة اليومية، فـ«جوانيو» شخص له سطوته.

كانت السـيدة «بوس» تقوم بغسيل البلاط وقد عقدت ممسحتها في دلوها، واقتربت من القمطر.

ترتدي مريلة سـمراء، وهـي ذات عينين حادتيـن، لهما حركات متتابعـة، وأنـف يتأجـج كأنه العـرف، أو كدجاجة تنقـر في الأرض بمنقارها.

- «هل حقا يا سيد «جوانيو»، ما يقولونه عن الأم داني؟».

سأل «جوانيو» مراواغا:

- «ماذا؟».

راوغت:

- «هـذه العجـوز، كم يا تـرى عمرها؟ إنهـا تقريبًا في السادسـة والسبعين، أو السابعة والسبعين..؟».

اختفـى «جوانيـو» وراء أهدابـه المغلقـة.. سـاكنا، ولكنـه على استعداد لأن يقفز فوق أي فريسة.

تمتمت السيدة «بوس»:

«مع ناسـورها ذي الرائحـة النتنة. نفهم أن المسـتقبل يجعله بلا مأوى! أليس كذلك يا «إميل»؟».

انتظـر «بـوس» دوره كي يقول كلمتـه. فقلَّب رأسـه قليلا وأفرغ شرابه في جوفه.

دامت لحظة صمت.

فهمت السيدة «بوس» أنها يجب أن ترمي بأوراقها.

- «يقـال إنها فكـرت في أن تبيع بيتها القديـم، وأن تعطي النقود إلـى أسـرة «كيرول» كـي تسـكن عندهم، هـل هذا صحيح يا سـيد «جوانيو»؟».

وافقها ساعي البريد:

- «حكوا لي أشياء من هذا القبيل».

قال «بوس» بصوت مبحوح:

- «بالنسبة لي هي شقيقة القس الذي دس كل هذا!».

تمتمت السيدة «بوس» بكل رقة:

- «حسـنًا.. إنها على غير حق. هذه العجوز المسـكينة داني. إذا كان لديهـا فكرة أن تمـوت في هدوء. وأن يتم الاعتناء بها حتى آخر

لحظـة مثلما يحـدث للناس الطيبين. وليس هذا لدى كنيســة منفرة، وكسول مثل «كيرول». لتكن مثلما تكون!».

مدَّدَتْ رقبتها، ونقرت بمنقارها، وأضافت:

- «هذا كل ما عندي».

رد «جوانيو» بلهجة كأنه يقول «مفهوم»:

- «ممكن!».

وتبادل الرجل وزوجته نظرة عابرة.

تنهدت السيدة «بوس» وهي تعود إلى عملها أخيرًا:

- «فلا يمكن أن تجعل الناس سعداء رغمًا عنهم.. أليس كذلك يا أميل؟».

أنهـى «جوانيو» شـرابه، وضبط خرجـه، وأطلق صفيـرًا لكلبه، لكنه لم يرفع كوعه عن القمطر.

هنا نظر إليه «بوس»:

- «اسـمع يا «جوانيو». أنت تعرفني. لا أعرف بالضبط ما سوف تبيعـه لهـا، فيللا الأمداني. لكن في الحقيقة نحـن هنا معًا، قد غيرنا رأي العجوز: فلها عشرة بالمئة، وسوف يتم إنجاز العمل».

قال «جوانيو» بكبرياء:

- «إيـه.. بين أناس من طرازنا، ليس هناك فـرق بيننا. يا «أميل». إن استطعت أن أؤدي لك خدمة. فسيكون ذلك من كل قلبي».

ثم أغمض عينيه الماكرتين أكثر. وأضاف بصوت رخيم:

- «أمـا بالنسـبة للباقي، بيـن الأصدقاء، فإن الأمور تتم تسـويتها دومًا».

تصافح الرجلان كأنهما يوقعان عقدًا فيما بينهما.

عائلة ميرلاڤيني، خبازون - مدام كساڤييه، حلوانية

6

يواجه المخبز محل البقالة. وعليه فإن مقهى «كافيه تاباك» يصل إلى مستوى المخبز قبل مستوى البقالة، لذا فإن «جوانيو» يدخل بالغريزة لدى عودته عند «ميرلاڤيني» قبل أن يمر على السيدة «كساڤييه». في هذه الليلة فإن «ميرلاڤيني» الأصغر هو الذي سوّى الخبز. أما الأخ الأكبر «ميرلاڤيني» فإنه يبيعه. أو بالأحرى هو الذي يتابع بيعه بواسطة خادمتهما «إرنستين»، وهي قذرة صغيرة، لا تمشط شعرها، ولم تبلغ السابعة عشرة من عمرها بعد.

يمكن تمييز أكبر التوأمين من خلال النتوء الذي على حاجبه الأيسر، وغير ذلك فإنهما متماثلان تمامًا: الأنف المقوس، البشرة الشاحبة، ولحية صغيرة والزغب الرمادي نفسه، وغبار الدقيق، الذي يصنع إطارًا على تقويرة الملابس.

التجارة لا تسير على ما يرام. وليست هناك وسيلة للنضال ضد نقل البضائع للمدينة الكبيرة «ڤيل جراند». حيث تتوقف الشاحنات الصغيرة، المليئة بالخبز الساخن صباحًا ومساء في ميدان الكنيسة.

يعطي الكاتب الوزن المناسب. ويقوم ببعض البيع بالأجل، ولا يتعامل مع النساء. شيء آخر يفعله الأخوان «ميرلافيني» بوجهيهما الشاحبين وبضاعتهما ناجزة الصفقات، لإغراء الزبونات. والخبز البائت الذي تنساب رائحته برقة، بعد أن يتم بلله، وإمساكه من الفرن فإنه فقط أقرب لذوق الجيران الذين يأتون إلى المخبز. ولأن «جوانيو» يعرف أن كل هذا ينتهي بشكل سيئ فإنه يدس أنفه، أخيرًا، في رسالة معلقة وجدها في صندوقه، رسالة تهديد، مجهولة، موجهة إلى مدير نقل البضائع، أما الأخوان «ميرلافيني»، كما يقال، فإنهما قادران على كل شيء. ففي القرية، كل شخص يشك فيهما، دون أن يحدد السبب؛ لذا فإن أية فتاة في البلد لا تود العمل لديهما، بينما مكتب التشغيل في مدينة «ڤيل جراند» يأتي لهما بعمال صغار من طراز «أرنستين». يحتجزونهما في الفرن ستة أشهر، ويوجهان رغباتهم في صمت، ثم إنهما يتوجهان نحو المدينة من أجل مبادلتهم بأشخاص أكثر طزاجة.

***

راحت السيدة «كسافييه» البقالة التي تسكن وراء محلها. تمسح عينيها وقد وضعت يديها على فوطتها. إنها لا تنزعج عندما ترى ساعي البريد يدخل. فهي لا تقوم إلا من أجل استقبال زبائنها. حتى عندما يحضر لها «جوانيو» جريدتها فإنها بذلك تكون زبونته.

السيدة «كسافييه» بها مس من الجنون، وهذا شيء ملحوظ. حتى في فترة الراحة، فإن وجهها تحت كتلة من الخصلات الرمادية،

يبدو ساكنًا ومرتبكًا. كما أنها تمشي أثناء النوم، وتحبسها ابنتها ليلًا حتى لا تخرج وترعب الجيران. أكثر من عرابة، دون أن تزعم أن السيدة «كسافييه» امرأة ساحرة مثل ساحرات الزمن الغابر، وتفكر أنه بهاتين العينين يجب أن تلقى أمورًا شريرة، ولا امرأة بدينة تضع قدميها في محل البقالة.

طبيعة السيدة «كسافييه» تشبه طبيعة القطط، فهي من ناحية أخرى تعلق وتشجب - مثلها - وتنغمس في حلم ساكن ومتربص مثلها، وتبدو كأنها محبوسة في عالم معزول عن البشر. وعندما تمر من الباب - حتى باب غرفتها - التي تدخلها عشرين مرة يوميًّا - فإنها تصاب غريزيًّا بالتردد، وتلقي نظرة تشكك يمينًا ويسارًا. سواء في محلها أو مطبخها، تظل حريصة، وتسند ظهرها إلى الحائط، نحو **المكان الذي تفد** منه. وعندما تبدأ في الأكل فإن وجهها يحمر، وكأنها قد طهت نفسها. تتشمم أطباقها وتتذوق قطعها بأطراف أسنانها، وكأنها خائفة من التسمم.

لا تبدو الحياة ممتعة مع امرأة متوحشة غريبة، وهكذا فإن ابنتها الجميلة رغم أنها قبل أن تكون مؤهلة للزواج، فإنها تفكر في الزوج باعتباره سجّانًا ومن عدم الجدوى أن تنتظر. «اسبرانس» بالغة الجمال، وهي مسكينة. ومن المعروف أنها عملت في إحدى صحف الموضة. وكل الغلمان يحومون حولها، ولكن لا أحد سيتزوجها.

مدام داني، صاحبة دخل

7

رغم أنه ليس له سوى نافذتين.. بيت السيدة «داني» قد تم تعميده كـ(ڤيلا) عندما لم يكن هذا سوى تصميم للبناء فوق ورق مقوًّى. وأن السيدة «داني»، رغم أنها لا تعمل

الآن، كانت تنز عرقا أمام فرن موثق عقود الضاحية. لكن المعنى الفخري لكلمة «ڤيلا» لم يكن قد شاع في البلد إلا فيما بعد: بعد أن تم بناء أسطح البيوت الزجاجية من طراز ماركيزي، فوق باب أصفر، مصنوع من خشب البلوط الفاتح، المرصع بالفراء الفضي أشبه بتابوت ثري، خاصة بعد أن أقام «جوانيو» بعرض التابوت في القرية، وقد تصدره بعنوان واضح مكتوب عليه: مدام «داني»، فيلا «مقبض السلة».

***

كانت السيدة «داني» تنام فوق سريرها بقميص نوم وتنورة، فقد ابتليت منذ عشر سنوات بناسور غير ظاهر، تعانيه رغمًا عنها ما أن تخطو عتبة الڤيلا، لذا فغرفة السيدة «داني» قذرة، لكنها أنيقة: هناك دولاب بمرآة، وقطعة سجاد مربعة أمام مقعد وثير، مذيل برأس لجام مثقب.

- «كم أزعجك يا سيدة «داني» برغم عدم أهمية الأمر، فالأمر بسيط.. لكن الخدمة هي الخدمة».

فلدى (جوانيو) دائمًا في خرجه خدمات بلا مقابل مما يسمح له أن يدخل إلى الناس مهما كانوا).

- «آه يا سيد «جوانيو»، أشفق عليّ: فإن الدوالي تؤلم سيقاني، أيها الطيبون! لم تعد لدي أدنى قوة لأمارس أعمال المطبخ.. لقد اشتريت رأس حمل صغير وجميل، مطعم بالخل، إنه رائع، بكل سخونته.. حسنا، فإن الأشعار ملقاة قبلي.. لو قلت لك إنني بالأمس، من أجل طعام المساء، التهمت فقط قطعتي بسكويت بللتهما بالنبيذ، تملكتني قوة كاذبة حتى أطرافي!.. آه! أيها الطيبون! مهما كان لدينا من مسكن طيب، فإن الأمر يتغير عندما تتحطم سيقاننا يا سيد «جوانيو!»».

- «لم أقل إنك لا تقيمين في منزل «جين»، هذا كذب يا سيدة «داني»، واعتمادي على ساعي البريد وأنت تجلسين بعيدًا جدًّا عن السرير. ورغم ذلك، ففي سنك، وبكل مرضك، فإنني أحب أن أراك منشغلة بأعمالك. محاطة بأشخاص يمكنهم تقديم المساعدة لك. ليس فقط في ڤيلتك الجميلة، المعزولة عن الناس كما أنت الآن!».

ألقت العجوز على ساعي البريد نظرة ممزوجة بالشك. كان جسدها الذابل قد كشف عن تجاعيد أسفل الحاجبين، وتحت شعرة رمادية فوق ذقنها، بدا الشعر الأبيض تحت إيشارب من القطن الأبيض له عقد كبيرة، كاشفة عن فروة رأسها الوردية مثل جلد مقشة.

- «لماذا تقول لي ذلك، يا سيد «جوانيو»؟ هل هذا هو رأيك في آل «كيرول»؟».

- «آل كيرول؟».

بدا أشبه برجل ساذج، يحس بالأسف عما بدر منه من كلام، لكنه - وهو يأخذ هذا في الحسبان - رجل قادر على إسداء النصيحة.

- «آه، يا سيد «جوانيو» أنا أنتمي لمنزلي، هذا غير معقول، وهذا ما يتعبني. لن أسكن مطلقًا في منازل الآخرين!».

- «هذه هي المسألة.. يا مدام «داني» في بيت «كيرول»، هل تجدين الثرثرة؟ لنقل عند آل «بوس»».

جحظت العجوز بعينيها:

- «عند «آل بوس»؟».

- «نعم! وكي أقول الحقيقة.. فالأمر يخيفني، من أجلك.. لكن عند «آل كيرول»، فإن منزلهم الصغير يبدو مثاليًّا، ليس هناك

ما هو أفضل بالنسبة لك من هذا السكن ففي أطراف الحديقة، هناك رطوبة أقل.. نعم.. لكن الناسور ليست لدي فكرة أنه يؤلم كثيرًا في الرطوبة. ثم ليس عليك سوى إشعال بعض النيران. في بداية كل مرة..».

كررت العجوز التي اهتزت قدماها وكأنها لن تستطيع إعادتها إلى مكانها ثانية:

- عند «آل بوس؟».

- «حدثيني عن «آل بوس»، يا سيدة «داني» ما دمتِ تعرفين بيت آل «كيرول». فهو هادئ وساكن، ألا ترين أنه أفضل من عشرات البيوت التي تحوطه؟! يمكنك أن تقبعي في مكانك بالداخل لأيام وأسابيع دون أن تسمعي نهيق حمار، ولا أن تري مسيحيًّا يمر ثَمَّ، في مثل سنك يجب أن تهتمي بالطعام، و«آل كيرول» جادون ولديهم نظر. فهم لا يتناولون سوى الحساء وقليل من الجبن، إذن فليست هناك أية مخاطر من إعداد كل الأطباق لك. كي تتابعي نظامك الغذائي.

- «وعند «آل بوس»؟».

- «أنت تكلمينني - ليس دومًا - عن آل «بوس»؟ يا مدام «داني»! الأفضل هو عكس ما تودين. أولا، ستسكنين في مكان مبهج أكثر من اللازم. امرأة في مثل سنك يمكنها النظر طيلة النهار

عبـر النافذة، وترى كيـف يتحرك العالـم، ثم في الحانـة، هناك دائمًا الغـادون والرائحـون، والثرثرة والأغاني، والبيانـو الآلي! ألا يجب علينا أن نتسلى عندما نصير عجائز؟ لكن المصيبة والتي لم أقل لك عنها هي الغذاء.

- «لماذا يا سيد «جوانيو»؟».

- «لأنك تعرفين الطهي يا سيدة «داني»، وأنت صاحبة فم رقيق، كما يقال، ومن الصعب أن تتماسكي عندما يكون الطعام لذيذًا، وأن يدفعـك الناس لـلأكل، وكأن وجبة حفلات الزفـاف تقدم كل يوم. مسألة أن نأكل أفضل، فإن «آل بوس» لا يعبؤون بها.

- «إذا كنت تعرف أن السيدة «بوس» تلقي النظر على أطعمتي- خاصة اليخني - فإن الآخرين يشعرون بالسعادة لأنهم يتناولونه في يوم الأحد!».

قام «جوانيو»:

- «لقـد أخبرتك، فكري في «آل بوس»، يا سـيدة «داني» قررت أن أقضي حياتي هناك، كي أعيدك إلى هناك.. هيا إلى الصحة، وإلى المتعة. كنت أحب أن تعرفي هذا عن آل «كيرول» الطيبين».

- «خذ يا سـيد «جوانيو»، دون أية توصية، خذ القنينة الزرقاء من فوق المائدة وأمامك دقيقة لتتناول كأس صغيرة معًا».

- «حتى لا أجعلك تواجهين الأمر، يا سيدة «داني»، يجب أن تستفيدي من بقائك، عندما ستكونين عند آل «كيرول»، فسوف تكونين في مأمن من هذه الإغراءات السيئة. إنه نوع من النكات المسجلة في الرابطة. مثلما يقول القس».

- «الرابطة؟».

- «نعم يا سيدتي الطيبة، كم تلت الشرف! فإن السيدة «كيرول» لها مبادئها، فإنها على مدى السنين تمنح حميرها إلى رابطة مكافحة الإدمان!».

وتبذل العجوز جهدًا كي تجلس على طرف الحاشية، وتتمتم.

- «يا لهم من طيبين! رابطة مكافحة الإدمان؟».

السيد فرديناند، حلاق - الخصماء المتحمسون - اعتراف سلستين

8

انشغل الحلاق «فرديناند» بالنظر إلى حفيده، الشاب «فرانسيس»، وهو يصب النشارة الطازجة حول مقعد الفوتيه الوحيد في محله.

صاح ساعي البريد:

- «تحياتي يا «فرديناند». هذه هي صحفك القذرة!».

عضو نشيط في اللجنة، فإن السيد «فرديناند» لا يقدم لزبائنه سوى أوراقٍ فكرية.

رجل قصير، مكروش، ذو شارب رمادي، وهو ينشغل منذ الصباح بالنيران، ويخفي صلعته أسفل شعر مستعار، وذلك من أجل أن يدبر لنفسه ثمن دهان الشعر.

الابن والحفيد وصغار الأبناء من نفس الصلب، فإن السيد «فردينانـد» لا يشعر بالعزاء سوف يمنح يومه إلى أصهب الشعر، وصار شعره أجعد مثل شخص أصلع وعليه أن يرمي بعرض الحائط كل تقاليد العائلة.

كرر في يأس:

- «لديك مقص حزين».

لأن السيد «فرديناند» يعرف أن مولد حلاق يحتاج أولًا إلى أن يعرف قرقعات مقصه.. وكأنه بائع البهجة في عيد الفصح. إنه يؤكد على هذا: فالمقصات تطير في الهواء مقرقعة في أصابعه مثيرة انتباه الزبائن ومشاعرهم الربيعية.

يحب السيد «فرديناند» فنه، فهو ماهر. إنه يحلق الشعر بشكل مختلف، وهو يمسك المقص بإبهامه. وهذه الطريقة هي الأكثر حداثة والأكثر تكلفة. وليست مطلوبة كثيرًا في «موبيرو». ثم إن السيد «فرديناند» يغسل إبهامه دومًا تحت الصنابير قبل أن يولجه في مؤخرة المريضة.

مقهى «لوكافيه تاباك» كان هو المركز المعروف لليسار، مقاولي الكليروس، وكانت «بوس» هي الكافتيريا الوحيدة في القرية، أما الناحية الوحيدة التي يختارها اليمين لجلساته فهو حانوت السيد «فرديناند». كان على كل منهم أن يقص شعره يوم السبت، ويشرب يوم الأحد. حيث يتوجه اليمين واليسار إلى مقهى «بوس»، وصالون الحلاق.

كان لليسار دافع آخر في الجس عند الحلاق، إن السيدة «فرديناند» هي المرأة الحكيمة الوحيدة في القرية، اشتهرت بقوة

عضلاتها، فهي تمارس عملها دون توجه من الحزب، وتقص جدائل اليسار مع الكثير من الخفة عما تفعل مع اليمين.

وبعيدا عن أيام السوق، فإن محل الخردوات يبدو خاويًا، ويرتب «جوانيو» نفسه حتى لا يرى مطلقًا آل «كيرول». ويعلن دخوله إلى المحل! وقبل أن تأتي من أعماق المنزل، يكون البريد في مكانه فوق المائدة، ويكون الساعي قد صار بعيدًا.

هم كسالى، مثلما تردد السيدة «بوس»، ولا يغفر لهم أنهم يتحركون بأقل قدر من النشاط مثل بقية سكان القرية. في الطقس اللطيف يتحرك «كيرول» قليلًا في المحل، أو في محل البقالة. وفي الطقس الحار فإنه ينام وتجلس امرأته من الصباح حتى المساء في المطبخ. تغزل المناشف وترتب الممسحات، وتطرز المفارش القديمة والبنطالات، ومن أجل ابنتها لوسي، فتاة مشوهة القامة، تضع نظارة على عينيها، تذهب إلى الخياطة، أو تختفي في أركان المنزل حتى تقرأ الكتب التي تستعيرها من المدرسة.

إنهما زوجان منذ ثلاثة أشهر، وقررا مقاطعة الأم داني، مدام «كيرول» لديها عاطفة واضحة: أفكارها محددة. تعد دولاب العجوز. «كيرول» أيضًا عمل حساباته مئة مرة حول بيع الفيلا، وفاوض العجوز وهي تحسب أنها قد تعيش خمس أو ست سنوات وسيؤدي هذا إلى المزيد من الكسب.

إذا كان «جوانيو» لم يدخل قط عند آل «سلستين»؛ فذلك بسبب نباح كلبيه الدائم من أجل لعق لبن القطط.

اليوم، الباب مغلق، وعلى «سلستين» أن تقوم بأعمال منزلها في ساعة مبكرة. لا.. فـ«سلستين» لم تستيقظ بعد.

جلست السيدة «سلستين» في منزلها تبكي.

فقد كانت هناك مأساة.

ففي «سان جان»، ذهبت «سلستين» إلى حقول الشوفان، وهناك أضاعت السلسلة التي تضعها حول رقبتها منذ مناولتها. ماذا تفعل وسط هذا الحشد، هي التي لا تخرج مطلقًا؟ لعل الشيطان قد نفخ ظهرها في ذلك اليوم! ودون أن تنطق بكلمة، أشعلت شمعتها، وراحت تعترف:

- «يا عزيزي «سان أنطوان»، إذا أعدت إليّ سلسلتي سأمنح الكنيسة تمثالًا..».

وفي اليوم التالي، أتى إليها أحد المزارعين بالسلسلة وقررت أن تشتري للكنيسة تمثالًا بأربعين فرنكًا، وبالأمس عرفت الخبر، فالسيدة «كيرول»، صاحبة محل الخردوات اتفقت مع السيد القس أن يضعا تمثال «سان أنطوان» في الكنيسة.

وراح التمثال يعبر القرية كلها، فوق نقالة، في خزانة من العاج الأبيض.

ووضعتـه عائلـة «كيرول» في الفنـاء، تحت السـقف العالي، إنه «سان أنطوان» بشموخه - كما يليق - بكل ألوانه.

قضـت «سلسـتين» ليلتها فـي الابتهال والصلاة. وهي تتسـاءل: إنهـا لم تخبر أحدًا قـط وأرادت أن تفاجئ القـس. والآن، لا يمكن أن يوضع تمثال «سان أنطوان» في الكنيسة؛ لذا راحت تنتحب وهي تحس أنها ملعونة.

***

فجـأة رفعت رأسـها، قفزت من فوق السـرير. وارتدت تنورتها، وصعـدت إلى صومعتها، واندفعت إلـى الطريق، ودق زاغت عيناها في الحواري، كانت هناك فتحة منخفضة، وعنبر بعيد، دخلت العنبر والفتحـة، حيث ازدحمت باللفائف المصنوعة من القش الناشـف. وأشعلت وريقة بواسطة عود ثقاب وظلت هناك للحظة. وهي تدقق في النيران المشتعلة.

كان ذلك عنبر السيد «كيرول».

السيد الخوري - سلستين في بيت الكاهن - الخوري عند الخصماء

9 يقع بيت الكاهن بين الفناء والحديقة، ولو قرعنا الباب، فإن صوت الجرس يقرقع مباشرة فوق الآنسة «فيرن»، أما الجرس الصغير فإنه لا يقرع.

الآنسة «فيرن» هي شقيقة القس. كتومة، ولا تعترف بالفشل، كهلة، وعذراء، وهي تتبع مذهب الكنيسة الحورانية، وهي ضد غالبية القرية التي تكرهها، وتتعامل معها بكل فتور. فهي تدير بفعل الأمر الواقع مجموعة من المعارضين النشطين الذين تجمعهم الكنيسة في ظلالها.

***

حتى في الشتاء، وهو يسلك الحارة فإن «جوانيو» على ثقة بأنه يرى القس في الحديقة يرتدي مسوحه، التي تبدو من أسفل فتحة العباءة:

- «سيد فيرن!».

يهتز القس بكل جسده، ويزرع عصاه أرضًا، ويقترب بكل هذه الإيماءات الازدرائية التي لم يتخلّ عنها في السنوات الأخيرة، حتى

في جسمه. يقول «باسكالون» الحفار:

- «ليس هذا قسًّا بل قراقوزًا».

يرفع الأب «فيرن» قبعته المصنوعة من القش بكل أدب، ويأخذ بريده. هذا البريد الذي يتأخر دومًا، يومًا عن موعده. ويلقي «جوانيو» نظرة عامة على المراسلات المغلفة بمظروف «أسود». «أسود» بالطبع، يقبلها ويعتذر بكل ما به من وضوح عن كل ما لديه من شعور بالشفقة.

***

القس رجل عجوز، داكن البشرة، ذو نظرة حميمة، ونحيف وعصبي بشكل مرضي.

لقد أبحر إلى «موبيرو» منذ خمسة وثلاثين عامًا ومعه كل ما يخص باحث شاب في متاعه. ففي السنوات الأولى، أخذ يناضل ضد الأفكار الدينية لهذا البلد الكهل، حيث لا يفكر في أي شخص سوى في نفسه، فقد شرع في خلق روح متعاونة مسيحية بين الناس، فالمؤمنون مدانون لمحاولتهم ولأنشطتهم، أما لجنة الإحسان التي أسسها بشكل نظري، فلم تعمل دومًا. من الخطأ ومن المستحيل أن ندفع ما بنفس هؤلاء العمال بفائدة بسيطة. لقد استمر هذا منذ أجيال عديدة، فالاختبار الحي في الاقتصاد هو خنق الغرائز الإنسانية كافة، إنه الآن سباق مليء بالتحدي والرغبات والحسابات، ورغم الحب

الجارف فإنه أشبه بالقروح. هل هو هكذا دومًا؟ هي مسألة طرحها القس دومًا بمعاناة.

لسنوات عديدة. شعب فرنسا الصغير استطاع أن ينحني دومًا داخل هذه الكنيسة المقامة الآن، ترى ماذا يحبون فيها، هل هو الحب أم الأبحاث، أم الحاجات الروحية البالغة الضمور؟.. أم هي الخشية؟ الخشية من الله، والخشية من رجال الدين؟ والتخوف المألوف من المصير المحتوم؟

يعرف الأب «فيرن» جيدًا أن هذه الأثقال قد دُمرت. من ناحية أخرى، فهو يحاول إعادتها إلى كيان يمكن الاستفادة منه.

شيئًا فشيئًا، فإن الاختلاف العام صار سببًا لشجاعته، سعة صدره أو صمته فاعتمد على نفسه، وقام بوضع نظام من المذهب اللاترابي. وصار ملجأه هو العناية الإلهية، مما أعطاه بهاءً قويًّا كالماء للخصوبة، عشر ساعات يوميًّا.

يقوم برعاية أرضه، كأنه يحصل على أجر إضافي بلا عمل، إنه يستفيد من الشتلات التي اشتراها له «لوتر» بسعر زهيد، فهذا يسمح للإنسان بمواصلة الحياة. وأيضًا بتوزيع بعض الصدقات.

يعيش بيت الكاهن بلا منازعات، وأيضًا في الكنيسة، كما يحمي - أخيرًا - منازعات الرعية الخورية التي تنتمي إليها أخته. لا يشاهده أحد في الكنيسة سوى في ساعات العمل الرسمية. كل يوم أحد في

القداس الكبير. أكثر إحساسًا بالرضاء. يصعد بكل اعتناء ويتكلم على أحسن ما يكون إلى بعض النساء العجائز اللاتي ظللن على وفائهن للآنسة «فيرن»، ولله.

انفتحت نافذة بيت الكاهن على اتساعها. صاحت الآنسة «فيرن»:

- «تعالَ، بسرعة».

هرول القس في ملابسه، واضعًا غطاء رأسه، وزرر عباءته بسرعة.

كانت «سلستين» تجلس قريبة من المدفأة، منهارة فوق مقعد، وهي تنتحب:

- «سيدي القس.. لقد حققت أمنيتي قبلها».

شرحت الآنسة «فيرن» المتأهبة لسبرغور القلوب - دومًا - وخففت من التعليق على الوقائع بكل ثقة. قال القس:

- لا تتركي نفسك لهذه الحالة يا طفلتي المسكينة. لدينا كل السلطة لأمنحك كل ما تتمنين. سوف تقدمين هدية أخرى للكنيسة: القديسة «جان دارك» مثلًا.. وستكونين مباركة».

عضت «سلستين» يديها، وهي تبكي، فقد أثارتها فكرة «چان دارك» أكثر:

- «لا يستطيع «سان أنطوان» أن يفهم هذا يا سيدي القس كي يعاقبني. لقد أفقدني كل أعمالي!».

تماسك القس، لكن عضلات وجهه أكسبته جدية أكثر من ذي قبل، إنه غير قادر على التماسك في مكانه. استدار نصف دورته حول مجموعة تماثيل من القديستين اللتين أمامه.

استكملت الآنسة «فيرن» كلامها:

- «إنها غلطتك! لماذا تركت آل «كيرول» يهدون تمثالهم؟ استدعهم! ورتب كل شيء بنفسك.

***

كانت السيدة «كيرول» جالسة في المطبخ، قريبة من ابنتها «لوسي» وقد امتلأت الحجرة بالذباب ورائحة الكرنب.

مدت السيدة «كيرول» المقعد وهي تقول:

- «اجلس يا سيدي القس». وتساءلت: ترى هل أرسلته الأم داني؟ ووقعت عيناها بالمصادفة تجاه «لوسي» وهي في الحديقة، تجمع أوراقًا للسلاطة.

جلس القس ثم قام، وظل واقفًا وهو يسند قدمًا على الأخرى ويطوحها، هازًّا كتفيه مثل كلب يخرج من الماء. وحكى سبب مجيئه.

- «أنت امرأة طيبة القلب يا سيدة «كيرول». وأنا أناشدك طيبتك، فالفتاة المسكينة تعتقد أنها ملعونة. وتحب أن ترى رد فعل لنواياها..».

احمرَّ وجه السيدة «كيرول»، ونظرت أرضًا، وقد عقدت ذراعيها فوق وسطها:

- «بالتأكيد لو كنت أعرف، ما فعلت ذلك.. ولكن ما حدث حدث، يا سيدي القس، فإن القاعدة مقامة، رغم أن اسمينا مدونان على اللائحة. كراهبتين».

صار صوتها أكثر حدة شيئًا فشيئًا:

- «لقد دفعنا، ونحن نبغي أقل قدر من النفع. أليس كذلك؟».

- «لكن، مادامت قد قدمت طلبًا كي تسترد ما صرفته من حساب!».

- «جميعًا؟».

- «جميعًا».

ترددت السيدة «كيرول» هذه المرة.

- «هل يجب أن أستدعي الرجل؟».

نزل السيد «كيرول»، الذي كم حلم فوق فراشه وراح يضبط ملابسه. له رأس صغير ومحدد، وذقن بسيطة كأنها مقامة فوق

عنقـه، العنـق الذي ينسـاب فوق كتفيـه والجذع يتسـع حتى أعماق بنطاله، حتى إذا جلس فوق الأرض فلا شـيء يمكن أن ينسكب منه أخيرًا، تبادل مع المرأة نظرة سريعة.

- «سـيدي القس، أنا إنسان يؤمن بالقضاء والقدر إذا كان سكان القريـة لديهـم وعيهـم. فقـط، إذا كانت هناك أسـرة تريـد أن تفعل، فهـذا تمثالنـا، تمثال بمئتـي فرنك. وسـوف أحضر لـك الكتالوج. السـعر كاذب. لنفترض أنه 220 فرنكًا. كل شيء مفهوم. والحساب مدفوع».

- «سأرتب كل شيء.. يا إلهي».

أحس القس «فيرن» بالسعادة، فهذه القصة الغبية تمت تسويتها.

عمـل «كيرول» حسـاباته فـي صمـت، التمثال يتضمن قدسـيته المنحوتـة فيه. وهو لا يسـاوي أكثر من عشـرين مليمًـا، لقد أخذت السـيدة «كيـرول»، وبـكل ما لديهـا من حـذر، تذكـرة يانصيب من القديسـة «أنفانـس». وكسـبت بمئتـي فرنـك مشـتريات من شـركة صناعات معدنية. وكان الرأس المدبر هو «فرانكو». فتحت زجاجة نبيذ أحمر لسائق الشاحنة. كل شيء بحسابه، ولم تكن تلك الساعة من الصباح ضائعة.

تـرى هـل كان يجهـل عظمـة كراماتـه؟ لـو كان قـد قـال «لا»، لاحترقت صومعته في هذه الليلة.

بوييود، صانع العربات

10 انبعثت الأدخنة عبر المنازل، خلف الكنيسة. آتية من منزل «بوييود» الحدَّاد. لا يقوم «بوييود» بتسخين حديد عجلات عرباته سوى مرة واحدة كل ثلاثة أشهر، عندما تكون لديه توصية بأن ذلك سوف يخفف الألم. وفي كل مرة فإنه يقدم عرضًا للجيران، رغم أن «جوانيو» لم تكن لديه اليوم خطابات ولا صحف، يحملها إلى آل «بوييود». إلا أنه لا يستطيع مقاومة أن يسلك الحارة كي يتوقف لحظة في فناء الحداد. إنه استعداد كبير. حيث يساعد الأب «بوييود» ابنه «نيكولا» والصبي «چوزيف»، اللذين ينفخان حول كتلة من النيران المشتعلة من الحطب القديم، وسط الأرض الزراعية.

الحداد، رجل عجوز، طويل، أشبه بالمصارعين. تُحوِّط وجهه لحية أقرب إلى السواد الرمادي فتجعله أشبه بذئب البحر. لم يره أحد يبتسم قط. هجرته زوجته بعد خمسة عشر عامًا من العبودية، فقد مارس عليها كل وجوده الثقيل، وماتت من شدة المعاناة. إنه يعيش الآن مع ابنه «نيكولا» الذي احترف المهنة، ويريد أن يتعلم

كـي يذهب إلى الكتّـاب. لكنه لـم يجرؤ قـط أن يتكلم عن ذلك إلى العجوز. وفي البلد، فإن «بوبيود» ذو سـمعة سيئة، يقال إنه لـم يعقد صداقات مع أحد. وذلك لا يمنع أن شـهرة محل الحدادة تصل إلى المدينة الكبيرة «ڤيل جراند».

منـذ البارحـة، تأهبـوا جميعًا للعمل فـوق كومة القش الناشـف والنفايـا، لقـد وضعهـا «بوبيود» فـوق بعضها. أكثر من عشـر دوائر حديديـة، ثم ملأ المدخـل بالمذرات القديمـة، ورتبها جميعًا حول حظيرة القصب. حتى توارى المحل وراء كمية ضخمة من الخشب المتراكم. هذا الصباح، لـم يبقَ أمامه سـوى أن يسـكب عليها نصف صفيحة من الكيروسين، وأن يشعل النيران.

ارتعدت الغابة، وانتشر الدخان الأسود على مساحة كبيرة، وظل ينتشر في الفناء ثم دار في الهواء الساخن، وراح يتسرب طويلًا فوق الأسقف.

عندمـا اقتـرب «جوانيو»، كان الحطب القديم قـد بدأ في الانهيار في كل النواحـي، وبدأت الأطواق الحديدية في الظهور، محدثة كمًّا كثيفًا من الرياح الحمراء، إنها اللحظة التي ينتظرها «بوبيود» بسخرية وسـطوة، فهو الـذي يفعل كل شـيء: فالغلامان ليس عليهما سـوى الخدمة، صرخ فيهما:

- «اجلباه!».

جرى «نيكولا»، و«چوزيف» بحثًا عن أول طوق حديدي، وراحا يديرانه ناحية النيران، ثم وضعاه فوق نجمة حديدية. وثبتاه بماسك يمر خلال ثقب البكرة. وراح كل من الرجال الثلاثة يتسلح بسيخ طويل من الحديد، وهم يقفون على مسافة مناسبة حول بؤرة النيران. ردد العجوز: «واحد، اثنان، ثلاثة».

دفعوا وسط النيران واحدًا من الأطواق المتداخلة، ووضعوه فوق الطوق الذي كان له تقريبًا القياس نفسه، وثبتوه فوق القرص. وما إن لمس الحديد الأحمر، اشتعل الخشب بقوة شديدة.

صرخ «بوييود»:

- «بسرعة!».

كان هناك وعاءان نحاسيان مليئان بالماء في الانتظار، يُحملان باليد، وبمساعدة رشاشات المياه التي تنغمس في الأواني. أسرع «نيكولا» و«چوزيف» بإخراج الطوق بسرعة، فاندفع البخار بقوة، مطلقًا صفيرًا. ارتدَّ الرجلان للخلف، ورغم ذلك فإن النيران التي انطفأت، اشتعلت من جديد، وانطلقت رشاشات المياه، ثم خبت، وانسابت المياه بقوة وخاض الغلامان في الوحل. وراحا يناضلان ضد النيران التي لم تكف عن الخبو والانبثاق، حول الأطواق. غمر «بوييود» الحديد حتى بلغت النيران إطار العجل، وبدأت الأبخرة البيضاء في التصاعد حيث خمدت كل النيران وبدأت أطراف الطوق

الحديـدي تتلمس طريق البرودة، وها هو ينتقل فوق الخشـب. لقد تم صهر الطوق الأول.

صاح العجوز «هوب!».

بـكل حـذر، رفـع الغلامـان الطـوق، ودس «بوبيدو» سـيخًا في الوسـط، وأداره حتى اسـتقر القفص في حوض ملـيء بالمياه. هنا، علـق «بوبيـدو» الطوق بشـكل متوازن بطريقـة اعتاد عليهـا منذ أمد طويـل وحده، وانتهى الأمر بالتبريد وانسـال الطوق بصمت شـديد في المياه.

شـعر الصغير «چوزيـف» بالإنهاك، ولمع التعـب في عينيه. فقد تبلـل بنطالـه الكتانـي الأزرق حتى ركبتيـه، ونز قميصـه من العرق حول ظهره.

صاح الحداد:

- «التالي!».

هتف «جوانيو» وهو يصفر لكلبيه:

- «هيا يا شباب!».

مدام ماسو وابنتها

11 كانــت إقامة وحياة الســيدة «ماســو» بالغتي القســوة. فمن الشارعِ، لا يُرى سوى جدار عالٍ. جدار «ماسو»، يحوط منزلًا كبيرًا. فقد كانت الســيدة «ماسو» وابنتها تمتلكـــان المال، لكنهــما كانتا تتظاهران أنهما على غير علم بذلك. وتعيشــان مثل الناســكات الفقيرات، وسط خشية العوز.

بــكل شــجاعة، تمكــن «جوانيو» مــن الدخــول إلى هــذه القلعة المحصنة مع كلبيه في وســط الفناء القديم الذي يحيط هياكل البيت الثلاثة. هناك امرأة في الخامســة والثلاثين من العمر، في الشــمس، وقد تغطت بجريدة مثنية إلى جزءين، وهي تنظف عش العصافير:

- «هذه باقة موصى عليها لأمك. يا آنسة، يلزمني توقيعها».

وضعت الآنســة «ماســو» مــرش المياه، وتصفحت وجه ســاعي البريد ببرود، ودهشة. بدت مستعدة أيضًا أن تغادر المكان دون رد، وأن تســير تجاهه، وتدفعه للخارج، لكنها هوت رأســها واستدارت حول نفســها وصعــدت درجات الدرابزيــن، يتبعهــا «جوانيو»، عبر

الممر الأشبه بالكهف، إلى أن وصلا إلى سلم حجري قديم، بليت درجاته من كثرة استخدامه.

أمام النوافذ المغلقة، جلست السيدة «ماسو» تطرز، وقد أغلقت غرفتها على نفسها. وفي هدوء، كانت ترتدي ملابس وكأنها في لوحة فنية، ذات ثوب واسع من الحرير، لكنه بالٍ، لا تخلعه طيلة النهار وأيضًا طيلة الليل، لأنها تنام به تقريبا. تحسب غرزها، وتدخل الإبر الطويلة في الصوف. إنها تفعل ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا، وكل أطفال القرية – أثناء الحرب، وفي كل أطراف المقاطعة – فإن السيدة «ماسو» قامت بتطريز ملابسهم الداخلية وسراويلهم وقلنسواتهم. فهذا هو عملها الوحيد. إنها تعطي لنفسها الحق أن تناديهم:

– «آه.. يا مساكيني!».

لم تسمع المرأة الصماء باب المنزل وهو ينفتح. وامتثلت ابنتها أمامها، وهي تصرخ في أذنها:

– «أمي، إنه الساعي يطلب توقيعًا».

الوجه القديم، الشاحب والهش، كما ورق الحرير، يستدير برعب ناحية «جوانيو»، ثم ناحية الفتاة.

فهمت السيدة «ماسو»، وسألت:

– «ألا يستدعي هذا بعض المصاريف على الأقل؟».

– «لا يا آنسة».

صاحت الآنسة «ماسو» بصوت مؤكد:

– «لن ندفع شيئًا!».

بكل حيوية غير متوقعة، قامت السيدة «ماسو» وأخرجت من تنورتها سلسلة مفاتيح واتجهت نحو خزينتها وفتحتها. أمسكت ريشة صغيرة راحت تحركها في حذر، وبللتها.

قال «جوانيو»: «هنا».. وهو يشير إلى المكان الذي ستسجل عليه توقيعها.

كان الحبر أكثر سيولة، مما جعلها تخاطر بتنشيفه بالمنشفة. تبادلت المرأتان النظر، لا داعي للبقشيش لساعي البريد.

في الفناء المظلم الصغير، حيث تزقزق الطيور الحمراء بعد أن خرجت من القفص، سكبت المياه التي في الرشاشة، وتحركت في كل مكان بلا جدوى، وهي تلعق بألسنتها فوق الأطلال المحترقة.

بينما وقفت الآنسة «ماسو» تتأكد إن كان «جوانيو» قد أعاد غلق الباب الرئيسي.

***

عندما جاءت السيدة «ماسو» - التي لم يكن أحد يعرفها في القرية - للاستقرار مع ابنتها في منزل لم يسكنه أحد منذ فترة طويلة، سوى جدة زوجها منذ زمن، أثاروا بعض الضجة غير المتوقعة، كان يُنظر إلى هذه الأسرة بنوع من الزيف رغم ترددهم المنتظم على الكنيسة. وفي أثناء شبابها اشتهرت أنها تغني أغنية «مارسيليا» الصاخبة، وبخفة ساقيها - كما يقال - كأن يمكنها أن تكون دافعًا للصراع، حيث لاقى الكابتن «ماسو» الموت من أجلها، في حامية في جنوب الجزائر!

حدث هذا منذ خمسة وعشرين عامًا، ولم يعد أحد يفكر. خمس وعشرون سنة وهي تسكن هناك. وحيدة مع ابنتها. في هذا السكن القديم الذي يشع برائحته المميزة - مثلها - وبجلد القفازات الذي ظل داخل صناديق مغلقة لفترة طويلة. لم تشغل المرأتان سوى غرفتين. في منزل به ذباب وفئران وأتربة، وقد سُدت الممرات بخزائنها، ثياب مربعة تتراكم في العلب الفارغة، والغرف البيضاء ذات الدواليب القديمة، والمؤثثة من السياجات المعلقة، والأسرّة ذات الناموسية. أمام النوافذ ركام أسود، يحدث أقل حركة ضجيج عند الأوراق الجافة والذباب الميت.. الميت من الملل.

***

وقفت السيدة «ماسو» وسط الغرفة تتلفَّت حول نفسها، ثم تعاود الالتفاف فوق أصابعها كدمية، وهي ممسكة بالباقة البريدية

التـي وصلتهـا. تنتظر عـودة لياقتهـا، لأن كل هذا يسـتدعي نشـاطًا خاصًّا. سـلمت نفسـها لهذه الفتاة. بعظامها ودمائهـا، والتي تعرف كيف تضخ المياه، وتنشـر الخشـب وتلمع وتدهـن الأرضية، وترد على القـداس، وتتناقش مع الحـواس. وأيضًا - بالمناسـبة - تذبح على حين بغتة أرنبًا وهي تشير له إلى نصل السكين.

فتحت الآنسة «ماسو» اللفافة بسرعة. وكانت تلزم السيدتين ربع سـاعة لتفهما ماذا وصلهما. وأن هذه الماسـورة التي سـقطت فجأة من اللفافة ليست سوى نموذج لأشياء تنبعث منها روائح غير طيبة.

أخيـرًا، فالحيـاة لحظـة متقلبة، وما تلبث أن تسـتأنف مسـارها. استدارت الأم إلى ما تحكيه إلى ابنتها، وإلى طيرها.

إنهـا الآن في الثلاثينـات. في الربيع، تتملكها مشـاعر مضطربة، وهـذه الفتـاة الحيـة يمكنهـا أن تسـتمر سـاكنة لسـاعات، تنظر إلى أعشاش الطيور، حيث توجد الإناث، وعندما تحبس صغار الطيور، فـإن سـعادتها تتمثل في أن تخفـي واحدًا منها، وسـط الجو الحار، داخـل ملابسـها، وأن تذهب إلـى عملها دون أن يبدو عليها شـيء. ذات مرة أخذته إلى الكنيسة.

***

كل يوم، في السـاعة الثالثة، في الشـتاء، وفي السـاعة الخامسـة صيفًـا، يمكن رؤيتها تدخل الكنيسـة، من البـاب المنخفض لجناح الكنيسـة، وتتجـه يمينًا ناحية مذبح الاعتراف، لتقف تحت السـتار،

وقد تدثرت بحجابها وخمارها. وتكون السـيدة «فيرن» قد سـبقتها علـى غير عمـد. مثل عاملتيـن تحبـان حاجتهما، إنهمـا تنهلان من وقت السـعادة، فالمرأتان تقومان بالتسبيح وفسح المقاعد، وتملآن القناديـل بالزيـت. وكأنهمـا فـي عيد هذه الأيـام فإن العمل يشـغل كل مـا بعـد الظهيـرة. يجـب تنظيـف الشـمعدان، وتغييـر مفـارش المسـبح، ومراجعة الزينات، وملء أوانـي الورد والنباتات، تنظمان كل شـيء فيمـا بينهما كـي تظلا تعمـلان جنبًا إلى جنـب، وتثرثران بـلا توقف. مثل شـجرتي لافنـدر، وتتناقـلان كل أخبار اليـوم فيما بينهمـا، لكنهمـا تتكلمان بصـوت خفيـض. وبإيقاع واحـد تبدوان كأنهمـا ترددان ما تحفظانه، وهما تكشـفان عن القادم. وفي كل مرة تمران أمام مظلة الكنيسـة، تقومان بالشعائر نفسها، إيماءات يملأها التقديس، وتبدو مألوفة، فهما تحسان أنهما في منزلهما.

***

لـم تكن الآنسـة «ماسـو» جميلة، لكنها تجهـل ذلك. تمتلك قوة وجاذبية، ألوان الفرس، وأهداب كثيفة، ويدان تبدوان دومًا شديدتي الحساسـية، وتبدو عليها الجرأة، وبعض الزغب الأسود في أطراف الشفاه. ومنذ بضع سنوات تحس بكتل من النيران تستبد بها دومًا. في صدغها تنمو بقع حمراء وتتناثر حول عنقها، وفوق كتفها وذراعها. ربمـا فـوق أجـزاء من جسـدها. لقـد فكرت فـي استشـارة طبيب. لكنهـا تموت ولا تتعـرى أمام رجـل.. مهما كانت الأسـباب، فهي

لا تكشف عن ملابسها الداخلية، وعندما تغير ملابسها في الأحد الأول والثالث من كل شهر، فإنها تفتح الدولاب والمرآة، وحتى لا تقع تحت سطوة الإغواء، فإنها تتبادل النظر مع المرآة وتسحب القميص بين أسنانها، ولا تتركه يسقط أرضًا إلا بعد أن ترتدي بديله.

يدهشونها عندما يسألونها هل هي سعيدة، يبدو تعبير الوجه دومًا قلقًا. وفي أيام ما، فإن شيئًا ما يلمع في عينيها، وتبدو نظرتها للأطفال مطبوعة برقة ملحوظة.

ذات ليلة صيفية، عادت وقد لبست حمالة زوجة «فيجو» - عامل السكة الحديد - وسلكت الممر نحو النهر، ورأت ثلاثة غلمان خارجين من المياه، وقد تمددوا فوق العشب، كان عليها أن تمر فيما بينهم. لم يكن أكبرهم طفلًا...

ارتبكت الآنسة «ماسو» لعدة أشهر.. وقبل أن تغرق في النوم، تجد نفسها مجبرة غلى التفكير فيما رأت، لقد مرت خمس أو ست سنوات على هذا، ولم تمر ثانية من المكان نفسه حتى الآن.

***

عائلة لوتر وفرتيز، زراعة السباخ

12 يسكن آل «لوتر» عند طرف المستنقع. حيث درجة الحرارة أقل دومًا من أي مكان آخر، كان منزل السباخ أنيقًا، بشكل جيد، إنه الجندي الألماني[1]، الذي يعيد إصلاح السقف كل يوم أحد، ويعيد طلاء مصارع النوافذ، ويصنع هذه الطاحونات الصغيرة المزركشة التي تدور عندما تهب أقل نسمة هواء في كل أنحاء الحظيرة.

دفع «جوانيو» الباب الحديدي. وصاح:

- «صباح الخير، يا صغيري!».

كان هناك صبي جالس تحت العنبر، بين العديد من السلال، مسترخ تحت صفصافة وارفة الخضرة. تقدم في الشمس، انحنى لمداعبة الجروين، ونادى بصوت مبتهج:

- «ماما!».

أعطت بشرته الملفوحة لنظرته وضوحًا في المنبع، فأكسب

(1) FRITZ تعني الجندي الألماني الذي شارك في الحرب.

خصلته الشقراء المجعدة بريقًا. قالت السيدة «لوتر» التي ظهرت لتوها على العتبة:

- «ادخل يا سيد «جوانيو»، سوف يتكلم إليك الرجال. ابحث عنهم يا إريك!».

وبكل خفة عبر المراهق الحاجز، وانطلق مهرولًا.

مقسمة إلى مستطيلات صغيرة، ومليئة بالمياه التي تلمع في الشمس، تمتد الحديقة حتى المستنقع، ويُلاحظ - جنبًا إلى جنب - شابّان بالقمصان البيضاء، وكي يلحق الصبي بهما، قفز على قدميه وقرع الأجراس ذات السلاسل، الأشبه بآلات ضخمة معلقة في الهواء.

***

كان آل «لوتر» قبل الحرب يعملان في الرعي، ليس لهما أبناء، اهتمت الأسرة بتربية بعض الأبقار وبيع اللبن للقرية، وورثت المرأة هذا المنزل المهدم وبضعة أفدنة من المراعي المزروعة قرب المستنقع.

وجاءت الحرب، وفي الأسابيع الأولى كتب «لوتر» من ألمانيا أنه تم تجنيده في الجيش. وكان على السيدة «لوتر» أن تتصرف، فالأوراق تباع بشكل جيد. وزادت من تربية الحيوانات كي تساعدها، وطلبت سجينًا ألمانيًّا.

قضى الجندي الألماني كل شبابه في «بافاريا»، يعمل عند سباخ، ثم كصانع، وعندما جاء إلى هنا رأى لتوه الجزء الذي يمكن أن يعمل فيه في هذه المستنقعات الخصبة، ووسط سخرية الجيران قام بحفر الحفر، وروى المزرعة بالمياه، وجفف الأرض. مستفيدًا من ثنيات التربة كي يعقد نظامًا للري بمساعدة الهويس الصغير ذي الفتحات.

كانت السيدة «لوتر» تعمل إلى جانبه وكأنها رجل. وطوال عامين، تحولت الأعشاب القفر إلى أرض خصبة، بعد أن كان اليأس قد أصاب السيدة «لوتر» التي وجدت الفرصة أخيرًا كي تبدأ في تطور جديد في عملية التسبيخ.

لم تكن البلدة تضحك سخرية قط، بعدوانية، من المشاريع التي تحلم بها المرأة، بل كأنهم ينتقمون من الزوجين: وقد أثار ميلاد طفل فضيحة. وانتظر الجميع نهاية الحرب وعودة الزوج الذي يعرفونه عنيفا في الجيش، وكانت مفاجأة: أن المرأة طردت جندها الألماني. ورحل «لوتر»، ذات يوم دون أن يخبر أحدًا، ولكن «52 شهرًا» من المعسكر عكست تأثيرها عليه. كأنه في النقاهة، فقد اتسم بالكسل، ولم يكن دوره سوى أن يأكل سكرته، ويتصرف على راحته، وجد امرأته وقد صارت شحمًا ثريًا، والمنزل قد أعيد بناؤه، والمائدة مهجورة، والتجارة مزدهرة. وحدائق من الصفصاف رعاها الجندي الألماني، وزاد الطين بخبراته، كان ينظر بكل هوس

إلى كل هذا بلا غضب: فقد كان يوازن الأمور، أسفل الحديقة، بأنه ضد كل هذا، أكثر مما هو معه.

قالت له امرأته:

- «لا تكـن خصيًّـا، إذا أردت أن تسـتفيد، اعمـل معنا، الألماني سوف يعلمك المهنة».

ولـم يرد «لوتر» بشـيء، وبعد بضعة أيامٍ مـن الراحة والمتعة بدأ في التعليم.

في الحقيقة، فإن المرأة كانت تؤدي العمل، وظل حساب البنك باسمها، وعندما تتكلم عن زوجها، أو عن البافاري، تقول «رجالي» وكأنها جاويش.

في كل غرفة من الغرفتين في المنزل، كان هناك سـرير كبير، تنام السـيدة «لوتر» فوق أحدهما، والرجل الثانـي فوق الآخر. لكنها لم تعرف أيًّا من الرجلين يشاركها في سرير الطفل.

***

قالت السيدة «لوتر»:

- «سوف تنعش القش، يا سيد «جوانيو»».

كان وجههـا الريفي واضحًـا وأقل مهابة. وضعـت فوق المائدة إبريقًـا تنبعث رائحته، وملأت الزجاجات الثلاث بشـراب مسـكر.

قالت:

- «إنه الألماني الذي يصنع لي ذلك. وهو يغمس أشجار العنبراء في العسل.. لم يكن للقاعة مثيل في البلد، ولم يجرؤ «جوانيو» قط أن يقترب من كلابها، كان أثاث منزلها، والأرضية مدهونة بالشمع الأشقر، والستائر التي تخفي ملامح النهار والحديقة، وألواح الخشب متعددة الألوان، والنوافذ، تؤكد أن الألماني مر من هنا.

كان الرجال يدخلون المكان بالأحذية، ويدوسون فوق الأرضية، يرتدون القمصان النظيفة، والبنطالات المحبكة النسيج، لكن الفلاح الفرنسي القصير، أجعد الشعر يبدو، قريبًا من الألماني. قالت المرأة بصوت آمر:

- «اشربوا بهدوء، إنها قسوة هذه الحرارة».

وبعد نظرة تجولية، انسحبت ببطء.

جلس الرجال الثلاثة في صمت.

قال لوتر:

- «يجب أن تؤدي لنا خدمة يا «جوانيو»».

راحت عيناه تلمعان، يهتز عجزه في طرفة مما يعطيه شكلًا أكثر بهجة «إنه يشبه الجندي». يتطلع البافاري من فوق كتفه إلى رأس المسيح. يخفض عينيه فوق الأرضية يشير «لوتر».. ماذا؟.. كأنما

قام «جوانيو» بحركة مفاجئة. «لا تقل العكس» فهذا سيكون أفضل للجميع..

يتجرع من الكأس. ويتوقف قبل أن يكمل:

- «نحن لا نعرف اللوائح. هل يجب أن تناقش العمدة وتبلغنا بذلك بأقصى سرعة؟».

أحس «جوانيو» بنظرة الألماني نحوه وبنظرة «لوتر» الزرقاء والمحددة. علق «لوتر».

- «سأخبرك بذلك لتوي، يا «جوانيو» فالوقت الذي سوف تضيعه في هذا العمل لن يكون وقتًا ضائعًا بالنسبة لك. فالمرأة موافقة بأعلى. الخدمة خدمة والنقود نقود».

قال ساعي البريد:

- «لا تتكلم عن هذا فالألماني شخص أكن له الاحترام، سوف أخاطب العمدة، إذا أردت. فقط سأقول لك إن منحه الجنسية اليوم سيكلف الكثير».

- «هل سيتكلف أكثر من هذا؟».

- «أعتقد ذلك».

نظر الألماني من جديد إلى الأرض، وبأصابعه الطويلة النحيفة، راح يداعب رقبة الطير، بينما أخفض «لوتر» أهدابه للحظة، ناظرًا

نحو الكأس الفارغة، ثم قال:

- «في هـذه الحالة هل تـرى أننا يجب أن نعـرف الثمن؟ المرأة هـي التي فكـرت في ذلك. لكن ليس المصـروف هو الذي يجعلني أتعجل. اعلم، سوف نرى إذا كان هذا أفضل».

قال «جوانيو» وهو يحمل صندوقه:

- «مفهوم».

***

ظلت السـيدة «لوتر» جالسة خلف الباب. وجهها شديد الجمود عن ذي قبل. ألقت نظرة مليئة بالإلحاح إلى ساعي البريد:

- «هل نعتمد عليك يا سيد «جوانيو»؟ هذه بطيخة صغيرة حلوة من أجل أن تتناولها زوجتك في الغداء».

اللاجئون البلجيكيون القدامى
- البوهيمية الصغيرة - السمراء

13

تستيقظ الأسرة البلجيكية، دومًا قبل الدِّيَكة، لكن تلزمها ساعات عدة لكي يقوم عائلاها. تخرج العجوز من السرير أولًا. متكسرة في جانبها الأيمن، وتعاني طويلًا قبل أن تتمكن من التماسك. تستريح بين كل مجهود، وهي تسربل جوربها وتنورتها.

ينظر البلجيكي من سريره. يود لو ساعدها. لكنه في حاجة أيضًا أكثر منها، أكثر من حاجتها إليه. عندما تتأهب أخيرًا، تفتح الأغطية، وتسحب من الحاشية ساقي زوجها الثقيلتين. ثم تمر وراء السرير، تسند عقبيها إلى العمود، وبينما كان العجوز يمسك بالحبل الذي ينزل من السقف تضع يديه على ظهره، وتدفع بكل قوتها. يتشجعان معًا: «هان.. هان..» يرتفع صدر العجوز وينخفض. أكثر من مرة. ينتابها الغضب. تهينه، وتتعامل معه بقسوة، وبأنانية؛ في بعض الأحيان، تبكي من الجبن. أخيرًا، يقوم بقفزته، يترنح ثم ينهض على قدميه. يقف عاري الساقين، بركبتيه المتلامستين، وعينيه المقوستين، وذقنه الطويلة المعقوفة، وقد بدا أشبه بمهرج. لكن

الشـيء الأقسى قد تم. مستندًا إلى عصاه، يصل إلى الحائط ويستند عليه، بينما جلسـت هي قبالته كي تلبسـه جواربه وبنطاله. يشـكرها وهو يتحسس عنقها بيده الخشنة.

يسـتند كل منهما إلى الآخر، ويخرجان بخطـى قصيرة، ويبقيان فـي الخارج. لقد بـدأ النهار. وها هي الأسـرة البلجيكية تجلس في الفناء.

وصلا مـن «موبيـرو» في أغسـطس 1914. كل اللاجئيـن الذين جـاؤوا معهما عاودوا الرحيل منذ زمن طويل. أما هما، فقد اشـتريا هـذا المنـزل الصغيـر، البعيد قليـلًا عن القريـة، وهنـاك حلت بهما الشـيخوخة. ودودان مـع كل النـاس، خدومـان، لم يزعجـا أحدًا، ولـم يحبوهمـا قط، يشـاهدانهما دائمًـا في حالـة بيع، لكنهمـا أبدًا لا يشـتريان. رغم سـنها، فـإن العجوز لم تتـردد في العـام الماضي فـي أن تقـوم، مـرة كل شـهر، بتفقد المواقـع التي تفصـل «موبيرو» عـن المدينة الكبيرة، من أجل بيع زوجين من الحمام مقابل خمسـة وعشـرين مليمًـا أكثر، أو ملء سـلة بالخـوخ الأخضـر. لكن الآن، حلت الشـيخوخة الحقيقية. لم يترك البلجيكي سريره قط أو مقعده المصنـوع من القش. تنحني العجوز على مقربة منه، إنها لا تقوم إلا بدافع الضرورة: تسـخن بعض الحساء، تسحب وعاء الماء، تحضر الزهرية، أو تلقي حفنة نخالة داخل جحر آخر أرنب على قيد الحياة داخل الجحر.

وجدهما «جوانيو» جالسين أمام مطبخهما.

الفناء الذي كان دائمًا معتنى به، غزته الآن الأشواك المليئة بالتراب. حول العجوزين تسقط أوراق شجرة الأكاسيا العجفاء ظلاً باهتًا لكن دمهما البارد لم يعد يعمل حسابًا للشمس.

- «صباح الخير أيها الجار».

ابتسم البلجيكي، فـ«جوانيو» يناديه «بالجار» منذ أن اشترى هذه الكرمة فوق مرتفعات غابة «الوران»، المجاورة لمنزل العجوز. قال ساعي البريد وهو يفتح حقيبته:

- «ها هي أخبار من الوطن، لن أوصيكما أن تحتفظا لي بطابع البريد من أجل مجموعة رئيس المحطة».

هزت العجوز رأسها بأسى أسفل عربة مصنوعة من القش الأسود الباهت، كأنها رأس ميت، وقد بدت تجعيدات شعرها الأبيض كزينة عبثية:

- «من المثير للملل أن يصاب المرء بالشيخوخة يا سيد «جوانيو» خاصة ونحن في سن السبعين جئنا من بعيد.. اجلس لحظة، فأنت لا تزورنا دائمًا.. في الليل. يمكنك أن تصدق، كم أحس بالخوف، هيا.. عندما سيموت أحدنا - ولنفترض أنه أنا - ماذا سيغدو عليه الآخر، لن يكون لديه أحد؟.. مثلما أخبرتك يا سيد «جوانيو»، إنه لن يمارس أموره وحده!».

ظل العجوز ساكنًا، عصاه بين ركبتيه، يركز، يثبت عينيه الصافيتين نحو ساعي البريد حيث يقرأ فيه الخجل والخوف.

- «لماذا لا تتخذان خادمة؟».

ارتعد فم المرأة العجوز:

- «شكرًا، يجب أن ندفع لها مرتبًا! القليل الذي نقتصده من إيجار نصف حديقتنا وكرمة غابة «لوران». هل سيذهب هذا إلى جيب شخص آخر؟ سيكون هذا من بين خصوصيتنا! آه يا سيدي العزيز «جوانيو»، نحن لا نتكلم دائمًا - نحن الاثنين - ما يجب علينا فعله عندما كان يمكننا الذهاب والمجيء، هو أن نبحث عن فتاة طيبة، قوية، غير متهورة. سوف نقول لها: تعالي لتعيشي معنا، دون أن تكسبي شيئًا. لقد اتفقنا أنه بعد موتنا سنترك لك كل شيء. المنزل والحديقة، وكرمة غابة لوران - وأيضًا بعض المدخرات الصغيرة!..».

ضغط كل منهما على يد الآخر الخشنة، وتنهد:

- «يجب أن يحدث هذا يا سيد «جوانيو»، لكن تأخر الأمر. وكي نجد هذه الفتاة اليوم، فإننا مثل من يضع الخيط في الإبرة بدون نظارة».

تساءل «جوانيو»: يا إلهي يا إلهي.. المنزل والحديقة.. والكرمة».. خرج من القرية، تحت شمس لا تحتمل، وأخذ وجهته

نحـو «فـورش» حيـث يوجد محـل السـيدة «فلامـار». تمرغت في ملابسـها القديمـة، طفلة صغيرة، تداعب معزتها بطول السـور. إنها طفلـة لـدى آل «موريسـو» مثلما ينـادي زوجة «موريسـو»، صاحبة الصدر الضخم. لقد نضجت الصغيرة بعد سـنواتها الخمسـة عشر، وهو ما يلاحظ أسفل المريلة الممزقة الممتدة فوق رقبتها الوليدة.

قفز «جوانيو» من فوق عربته، سعيدًا مما دفعه إلى أن يصفر.

- «كيف الحال، يا وزتي».

نظـرت إليـه وهو يتقدم نحوهـا، دون أن تتحرك وقد امتلأ شـعر السـمراء الكث بالعرق، وقد لمعت عيناها وراء أهدابها، أما بشرتها الداكنة، فقد جعلتها أشبه بشابة بوهيمية صغيرة.

هزت كتفيها.

- «هذه الليلة، تقيأ دمًا».

نظر ساعي البريد إلى الكلاب الصغيرة التي تشم ساق الفتاة.

- «إنـه هو مـن أجل جـذب الكلـب، أو لجلب البعـوض الذي أشرت لنا عليه مثل ساقيك».

لملمـت سـاقيها، وسـحبت تنورتهـا إلـى ركبتيهـا العاريتيـن، وضحكت ساخرة:

- «ماذا يمكن أن يفعل هذا بك؟

قال «جوانيو» بجرأة:

- «يـا صاحبة اللسـان الطويـل. أنا واثق أنك بلا سـروال.. أنت تستحقين ضربات رائعة على مؤخرتك الوقحة!».

وقفت، ثم قفزت جانبًا، مثل جدي:

- «يجب أن ترى!».

من حولها، بدا الهواء ساخنًا، كأنها فوق نار تزيد النهار سخونة. أخفض ساعي البريد عينيه:

- «سـوف أقابلك وحـدك يومًا في الغابة يا حلوتي، وسـتكونين أقل تبجحًا مثلما هو على الطريق الرئيسي!».

ضحـك، وجفف جبينـه، وراح يتثـاءب، واسـتكمل طريقه، مع أحلامه: المنزل، الحديقة، الكرمة.. إنها، بشكل خاص، هذه الكرمة التي تداعب رأسه: قطعة أرض جميلة حقًّا، استعرض ما هو أحسن، وبطول الكرمة، فجأة ضرب بركبته..

آل «موريسـو»، أقسـم! ترنح، ثم تماسـك، وبدا في السير يمينًا، وهـو يحس بالشـمس التي تشـبه حـراك الجمر. ومن خلفه تسـلك الـكلاب دربها، في دوائر حلزونية متربة تسـتمر لوقت طويل معلقة في الطريق. إنه الآن وسـط القرية، لا أحد على قيد الحياة. فرقعات العجـلات الجافة، ولهاث الكلبين، يضجران الصمت، عن اليمين، هناك طفل اسـتأصلت حشائشـه تحت الشمس. على اليسار، يتمدد

البنجر بلا أشجار: الجذور الوفيرة، تبدو أشبه بكتل مكشوفة، كأنها ترتفع بعيدًا عن هذه الأرض العجفاء. وهي تختنق، تتقافز مجموعة من طيور الحجل فجأة مع أصواتها المخيفة، وتضرب الظل من فتحة قريبة هناك، طائر فوق الأرض يحاول أن يقتصد جهده.

بدلًا من أن يتوقف عند «فاروش»، كان «جوانيو» يمشي في الممر، ويجتاز الحقل.

كان كوخ آل «موريسو» قد ضاع وسط الأراضي. عند اقتراب الكلبين، امرأة في سن الثلاثين، سمراء قوية، تأخذ مكانها قريبًا من البئر، توقفت ثم استدارت، صاح «جوانيو»:

- «أين هو، هل يمكن أن نراه؟»

ثم أخفض صوته:

- «يجب أن أتحدث معك بكلمتين يا «موريسو»».

غرفة واحدة ينبعث منها الدخان، الذي يكشف عن الطعم الحريف. في مخدع، فوق فراش، يتمدد المحتضر عن اليمين. النصف الأعلى ممتلئ بالحقائب القديمة المليئة بالشوفان، ليس هناك بوفيه، ولا مقاعد. فقط مقعد أمام خزانة تستخدم كمائدة. وفي ركن، هناك تبن من أجل الفتاة البوهيمية الصغيرة التي تظهر في النافذة المفتوحة، حيث تنبعث رائحة المزابل الثقيلة، تسخن الشمس ثم تبرد. قامت الكلاب بعمل دورة في الصالة، سوف تزداد

نفورًا من الجثة، وهي تقترب من الباب.

سأل ساعي البريد:

- «أليس هذا أفضل؟»

رد «موريسو» بصوت يشبه رنين الجرس تحت القبة.

«بلى».

ألقى نظرة تحدٍّ نحو زوجته:

- «غدًا أستيقظ!».

تصفحت المرأة وجه زوجها في ترقب، وكأنهما على انفراد. همست «موريسو»:

- «هذا القذر، لا شيء يهمه كي يذهب ليشرب ويبحث عمن يوقظه. لكن لا يوجد طعم مر هنا، وإذا ذهب إلى القرية، فأنا واثقة أنه سوف ينفق عشر مرات، قبل أن يصل إلى الحانة!».

اهتز «موريسو»، وزمّ فكيه وتسمر، غير قادر على الحركة، لقد انقلبت الأدوار، هذه الأنثى، التي تكيل الضربات بلا هدف، من أجل أن تتمتع بما تفعله، أمامها ستة أسابيع. الآن سوف يشكر، يخنقه الغضب: غضب حيوان محبوس داخل مصيدة..

إنهم يعرفونهما منذ زمن طويل في البلاد: طفلان لقيطان، تربيا في هذا المكان، زوّجهما المفتش الإقليمي، هي خادمة في

الفندق الصغير، حملت في سن السابعة عشرة، وهو عامل يدوي، سيئ المظهر، يشعر بالخوف، ودائمًا بلا عمل. فالقليل من الناس لا يعنيهم توظيف طفل سفاح. ابن غير شرعي، كان عليه - قبل أن يسقط مريضًا - أن يقبل الأعمال الصعبة، وبأقل أجر. كان يعزي نفسه بالشرب طيلة المساء، يقيم عند «بوش»، عندما يكون الرجل مليئًا، والصرة خاوية، فإن الكافتيريا تلقي بهم في الخارج.

امتلك «موريسو» كوخًا قديمًا موجودًا وسط الحفرات، كي يمرر غضبه - أو خجله - سحب امرأته من السرير وراح يصفعها، وعندما استكفى منها، استحوذت عليه فكرة دفعها فوق التبن.

استيقظت الفتاة بغتة، تكركع أسنانها من الوجل والخوف، إنها دائمًا تتقبل نصيبها من الصفعات. مثلما تلقت في الشهور الأخيرة، نصيبها من المداعبة، فإن الأم كي تحقق السلام، فإنها تنام وتترك نفسها تفعل. قالت:

- «أنت لست ابنته، ولولا هذا لكنت حبسته».

سلك «جوانيو» الممر وهو يمسك المقعد بيده. مشى بخطى كبيرة، وهو يفسد ما يجري. كانت «موريسو» تتمتم في صمت إلى جانبه، ثم همست:

- «الأمر أجمل من أن يكون حقيقة».

زمجر «جوانيو»:

- «لا تتغابي. دعيني أدبر الأمر فقط، هل فهمت؟ معطاء، معطاء. إذا وصفتك عند البلجيكيين، سوف توقعين لي ورقة، وفي اليوم الذي سترين فيه المكان سوف أحصل على الكرمة».

وصلا إلى الطريق الرئيسي. وقفت أمامه، وقد تماسكت فوق حذائها الخشبي. بقع كبيرة من العرق بلَّلت القميص، تحت الإبطين. داعب ساعي البريد بعينيه المؤخرة العريضة، والصدر المكبل، المعطاء.. المعطاء. كل هذا مسموح. والآن يتوقف الأمر على النجاح.

نادى كلابه، وهي تنفث هواءً ساخنًا، بينما راحت سحابة تظلل السماء، قال:

- «إنه الإعصار..»

استأنفت المسير في الممر والرأس يغلي، مترنحًا بالأمل. أما المحتضر فلا يزال هناك، يمكن أن يطلب، وأن يتقيأ رئتيه فوق حقائب الشوفان! آه لو كانت تعرف الطريقة التي تنتهي بها حياته، دون تلكُّؤ...

مـــدام «فلامار»

14 يعتبـر محـل «فـورش» - حانـة النبيذ والمشـروبات - منـزلًا منخفضًـا علـى مفتـرق ثلاثـة طرق، وسـط المناسغ.

كل شـيء مغلق، أوقف سـاعي البريـد آلته أمـام النافذة، وطرق على المصراع:

- «يا سيدة «فلامار»».

صـدرت حركـة خفيفـة بالداخـل، ثـم صـرخ صـوت خفيـض الصفير:

- «هأنذا..».

صرصر المفتاح، وانفتح الباب.

- «آه، هل أنت، يا سيد «جوانيو»؟ ادخل.. فقط سوف أنتهي من ارتداء ملابسي».

ترتـدي تنورة مـن الحرير، انتهت من ربـط الأزرار على صدرها القرباني، كورسيه وردي مجوف بشكل عام.

القاعـة مشـرحة للصـدر، تـكاد تكون مظلمـة، يتسـرب فوحان حمضـي مـن الليمونـادة والعطـور، اعتقـد «جوانيو» الـذي أصغى السمع، أنه سمع صوت إغلاق الباب بحذر من الخلف، الذي يطل على الغابة.

تمتم:

- «هل أزعجتك؟».

بدا أنها لم تسمع، وضعت فوق القمطر لترًا من اللبن، وزجاجتين أمامه.. وبدون مقدمات، وضع رسالة قبالتها.

- «هل هذا من أجل «فلامار»؟».

- «افتحيه إذن».

وأطاعت، وبينما هي تمزق المظروف، مست نظرة ساعي البريد، في اسـتمتاع الذراعين العارتين، البضتين مثل السـاقين، كاشفة عن آثـار مـكان شـرط التطعيـم الثلاثة ثـم ارتفـع، وداعب ثنيـات القبة الكثيفـة وأيضًا خديهمـا المغطيين بالمسـاحيق، الضفائر الحلزونية المليئة بالزيت وبها مشـابك من الماس الصناعي، والأمشـاط متقنة الصنع، شـكَّل كل هذا صورة جميلة للسـيدة «فلامـار» التي رفعت جبهتها، مدت له الرسالة.

- «من الوغد الذي كتب هذا؟».

قرأ لها «هذا».. قبلها، لكنه بدا غبيًّا..

- «الرسالة غير موقعة؟ أشك في هذا.. عندما تكون له مهارته فإن شخصًا مجهولًا يشم الثمرة عن بعد..».

وضبط نظارته وبدا كأنه يقرأ.

وارتطم بالذراع العارية فوق المائدة.

- «القهوة!».

تمتم «جوانيو»:

- «يجب ألَّا نتهم أحدًا دون أن نتأكد يا سيدة «فلامار»، وخاصة رجلًا أدى اليمين».

وكررت، والنيران تبدو فوق خديها:

- «إنه هو! خيال المآتة! وعندي أسبابي!».

قال «جوانيو» وهو يعيد الرسالة، ويفحصها بلا مبالاة ثم يبتسم:

- «في هذه الحالة.. قهوة زيادة».

لا شك أن خيال المآتة هو خصم لساعي البريد.

استعاد الرسالة وتفحصها بإهمال، ثم ابتسم:

- «الملعون كوفان!».

خيال الحقل هو خصم لدود لساعي البريد، مساعد قديم لملاك الأراضي، إنه يمارس وظيفته، عند آل «بوس» على مائدة المحاربين القدامى. منذ أن تم إعلان هدنة «برلين». شك «جوانيو» أنه يعمل دعاية خفية من أجل السيد «بييل»، ضابط الفرسان القديم الذي رشح نفسه للعمودية، وراقب «كوفان» عن قرب. لكنه أراد من خيال الحقل أن يرتدي زيه الرسمي، حيث يثيره ألا يمتلك الكاب «اللبس الكاكي» الوحيد في القرية.

زلق الرسالة في جيبه، إنه يمتلك الآن سلاحًا ضد كوفان. قال:

- «لا مانع، فبدوني سيكون الأمر قبيحًا بالنسبة لك!».

- «قبيحًا؟».

ضحكت بكل عجرفة، وراحت تداعب ساعي البريد فجأة.

- «لا تعتمد عليّ يا عزيزي! «فلامار» غيور، أنا أمارس عملي! ونجاحي يثير غضب «فلامار» الطيب ضدي. هل يجب أن يستيقظ صباح كل يوم قبلكم جميعًا». وبدا كأنه يحس بالندم لكلماته.

- «لقد تصرفت بشكل مناسب يا سيد «جوانيو». لأن هذا سوف يسبب الحزن للصغير، وأنا أشكرك لأنك تفاديت ذلك..».

أدار «جوانيو» سيجارته، ونظر إلى السيدة «فلامار» تحت عينيه المنهمكتين. كما لو كان يريد شيئًا، وقرر أن يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك:

- «فيما بيننا فقط، يا سيدة «فلامار»، لماذا تعيشين هذا النوع من الحياة؟».

- «أية حياة؟».

عندما رفعت رأسها، راحت مناخيرها، ترتجف أقرب إلى منخر العجل.

- «هيـا هيـا، كن «جوانيو» الطيـب. لا تمثـل دور الرقيق معي.. سوف أخبرك بما أفكر فيه، ما دمنا هنا، حسب أحاسيسي. فأي امرأة تذهب كل مسـاء للنوم إلى جوار «صائـع» مثل «فلامار»، يجب أن تحترم كلمتها. وأن تتماسك أمام كل شيء!».

- «نعم؟».

لم تغضب السـيدة «فلامار»، فقد تاهت فوق شفتيها المكتنزتين ابتسـامة باهتـة ومبهجة، غير موجهة لأحد، وكأنها انعكاس لشـعور داخلـي بالبهجة، وهي تقتل ذبابة أسـفل ذراعهـا الملحم، ثم ألقتها فـوق الأرض بـازدراء، ونظـرت للحظـة إلى سـاعي البريـد قبل أن تتكلم:

- «يمكنني التحدث معك يا سيد «جوانيو»، فأنت من النوع الذي يمكن لليمين واليسـار أن يتحدث معه.. حسنًا. سوف أخبرك بشيء طيب: «فلامار»، ليس رجلًا، أيدهشك هذا يا ولدي؟ إنه مثلما قلت لك. كم هو «صائع».. «فلامار» لم يمارس شـيئًا قط مع امرأة، ومنذ ست سنوات ننام معًا.. لم يلمسني مرة واحدة قط».

تجرعت من الكأس، ثم وضعت كأسها ببطء، وأكملت بانتباه:

- «لهـذا أنا متمسـكة به، إذا صدقت ما أقولـه لك. لقد كان لديّ رجال عديدون في حياتي الداعرة. وأنا لا أخفي ذلك، ولديّ طبيعتي، لكـن «فلامـار» - بصـرف النظـر عن الآخريـن - هو الرجـل الذي أحببتـه منذ أن عرفته: كان يأتي كل مسـاء إلـى الحانة ومعه الزهور، وهدايا صغيرة.. وعندما قلت له: اصعد معي.. قفز مثل قزم، أقسـم لك! وعندما عرفت أخيرًا سبب خجله الشديد، لا تستطيع أن تعرف ماذا فعل هذا بي. أقسـمت أن أترك كل شيء كي أعيش معه. وكنت عنـد كلمتي! حتى لو تألمت وأنـا أجمع القروش. فليس من أجلي، هيـا! رغم أنني أحب الكسـب كما اتفقنا، مثل النـاس كلها، إنها من أجل رجلي.. فأنا أكبره باثني عشـر عامًا. إنه شـيء غير ظاهر، لكنه مأخوذ في الحسـبان. فالعمل الذي أمارسه، وما يجب أن أعقله، لن يستمر طويلًا، وأنا أريد أن يكون للصغير - فيما بعد - خبزه وزبده، والمذاق في قهوته، والتبغ في غليونه، دون أن يخسر شيئًا»!

أسندت مرفقيها فوق المائدة، ودقت ذقنها المزدوجة في كفيها، وهـي تتفحـص سـاعي البريد الـذي أغمـض عينيـه دون أن ينطلق بكلمة.

- «هـا هو - يا عزيـزي - ما يتعلق بفهم الأمـور. وليس للحكم على الأشياء بسرعة بمجرد أن نراها..».

همس «جوانيو» وهو يحس بألم في بطنه:

- «رغم كل ذلك!».

العمدة، والمؤسس

15 أثناء الربع ساعة التي قضاها «جوانيو» في المحل، تلبدت السماء فجأة، أما تحت الغابة فقد كانت هناك حرارة تنقصها الرطوبة، وشكّل البعوض تجمعات كثيفة. مثل نهاية ما بعد الظهيرة، شذا عيش الغراب الذي على وشك أن ينمو فوق الأرض، في التبات التي ترتعد فيها الأرض الخصبة تحت العجلات مثل المحمصات، لم تتوازن أي نسمات فوق حقول السرخسيات الواسعة.

هتف الساعي إلى الجروين اللذين يتبعانه: «بسرعة، بسرعة» وقد برز لساناهما وهما يصدران جلبة خفيفة، كي يستأنف الرحيل وهما ينفثان.

تهب من ناحية المدينة الكبيرة «ڤيل جراند» سحابة داكنة، قادمة من الأفق، وبينما يعود «جوانيو» إلى القرية فإن العديد من النباحات البعيدة تعلن عن قدوم العاصفة. ووراء جدرانها الدافئة، ومصاريع النوافذ المغلقة، وفي غرفها سيئة التهوية، السوداء من الذباب،

زمجرت «موبيرو».. وتنفست، من هذه الرطوبة، وفاحت منها رائحة الأرض. من الصباح حتى المساء، يهتاج الناس. إنه الإيقاع الحيوي، الأحمق، البطيء، الذي لا يتوقف الذكور منهم. يبدون أشبه بـ«ثنية» واضحة في الجبهة، تجري بلا توقف من داخل الحظيرة، من المسبك حتى المستودع، ومن المنضدة إلى الكهف، ومن البقالة إلى صوامع الشوفان، أما الإناث الشبيهات بالنمل العنيد فهن يشكلن معًا مكوكًا، من البيضة إلى الفرخة، ومن الفرن إلى الغسيل، تصدر عشر حركات بشكل ضروري. دون أن تأخذ في الاعتبار معنى ما تفعله ولا أن تأخذ ساعة من الفراغ الحقيقي. يسرع كل شيء، كأنما أمر مهيب ماثل من أجل الحركة دليل الحياة. وكأنهن سيصلون إلى المحطة النهائية في سباق. لم تكن هناك ثانية يمكن ضياعها. مثل الخبز الذي لا يحصل عليه المرء إلا بقدر ما بذل من العرق.

***

في اللحظة التي عبر فيها «جوانيو» الميدان، هبت ريح مفاجئة، وقد نثرت زعابيب من التراب بلغت أسقف الكنيسة ضاربة النوافذ والأبواب، واصطبغت السماء بلون الرصاص، وبدت همهمات شديدة الوضوح.

- «أشعل مصباحك يا «فرديناند»، فهذا سيفسد كل شيء!».

هكذا نصح «جوانيو» الحلاق الذي كان يتأمل الأفق من فوق عتبة محله الخاوي.

أعلنت السيدة «بوس» التي كانت تمر وهي تجري «.. سوف تمطر».

أمام المكتب، قابل ساعي البريد رجلًا ضخمًا، شديد الحمرة يهمهم، وقد تدثر بمعطف أسود، وحذاء جلدي كبير. إنه «كوفان» خيال المآتة.

قال له وهو ينطلق:

- «هل أنت مجنون يا كابتن؟! اجرِ بسرعة! ألم تسمع الأخبار؟ «فلامار» قتل زوجته!».

توقف «كوفان» لتوه، وشحبت وجنتاه مثل دهن الخنزير. وانفجر البرق وسط الصمت، نظر «جوانيو» إلى وجهه وقال مازحًا:

- «لا تعكر دمك، يا غبي.. إنها مزحة.. الآن أعرفك، أريد أن أعرفه».

أدار له ظهره، وأعار إلى كلبه إحساسه بالشبع، وزرر رابطته كي يمر حسب روايته ففي كل صباح، يقوم بجولة، ويدخل منزل العمدة لمقابلة السيدة «أرنالدون».

تحت لواء علم الجمهورية، راح العمدة يتحرك ذهابًا وجيئة في مكتبه، الغليون بين الأسنان بينما جلس السيد «إنبرج» الذي انتهى فصله في مكتبه، وهو يمارس العمل الحالي.

- «لنختصـــر.. ولا داعـــيَ للكلام المنمق.. أنــا لا أخضع قط إلا للسلطة الرســمية التي تحاول ممارسة الضغط ضد ممثلي البلدية.. بــازدراء المبــادئ الدائمــة للتصويــت الشــعبي.. ســوف يــرون في الولا يــة، بأية غابة أدفئ نفســي! ســننظر غدًا في هــذا الأمر.. أعطني مكانك يا صغيري، وسوف أوقع كل الأوراق القديمة».

كان يتكلم بســرعة، وهو يمزق الأوراق الأقــل أهمية كافة «النكن واضحيــن فــي العمــل»، «إلــى الهــدف»، «ليــس الكثيــر مــن الكلام والثرثرة!».

كانــت هنــاك أكليشــيهات أخــرى مليئة بالطاقــة، تؤكد أن الســيد «أرنالدو» قيادي يعرف إلى أين يذهب، وما الشيء الذي لا يمشي في الاتجاهات الأربعة.

إنه رجل يقترب من الحلقة السادســة، يخلو تمامًا من الشــعر، له ملامــح عادية، لــه قامة ثعبان الغابة، العينان زرقــاوان، النظرة حادة، بلا عمق، والشارب مقصوص يكشف عن فم منسق مثل حُق النقود، لا تعبــر تجاعيد هذا الوجه ســوى عن جفاف: جفاف أشــخاص لم يتحققوا سوى في طموحهم البالغ.

وقف الســكرتير ومرر الأوراق الواحدة وراء الأخرى تحت قلم العمدة وفوق كل ورقة يتم توقيعها، يضع بشكل آلي خاتم العمودية، فكر بوضــوح أن مضاعفة الأعمال الإدارية تزيد الأعباء الاجتماعية

يومًا وراء يوم أكثر من نظام مدفون في بيروقراطية فاشلة. لكن هذه أفكار يحتفظ بها دائمًا لنفسه، فقد أقسم السيد «أرنولدون» منذ فترة طويلة بأعماله. إنه يعرف أن هذه الحصانة الرسمية، وهذه الشرعية الخصبة بلا أسانيد ولا جذور، أو سمات واضحة، وبلا حقوق، تتضاد حسب طبيعته الوظيفية كسكرتير للعمدة. إنه ساكت دومًا وخجول يشمئز مما يفعله، لكنه يعاني، احتفظ «إنبرج» بقلب شاب مناضل، يؤمن، بكل روحه وبكرامة الإنسان، وبالمساواة العامة للمواطنين، والتحية الواجبة في النهاية لانتصار الديمقراطية العلمانية، على حكم الشعب، وحق الإنسان في التفكير بحرية، وفي حكم الذات، والدفاع النضالي بلا توقف، ضد نظام قديم مستعد دومًا إلى العودة تحت الادعاءات الجمهورية للأحزاب الرأسمالية. إنها نفس العبارات التي يكررها السيد «أرنالدون» بشكل دائم. وهي بالنسبة لـ «إنبرج» الجروح الحقيقية. إنه لا يغتفر لـ«أرنالدون» أن لديه مفهومًا دائمًا لفكرة سياسية. إن «إنبرج» سوف يموت ذات يوم فوق متاريس حرب أهلية.

لم يشك «أرنالدون» قط في مشاعر سكرتيره، رغم أن «جوانيو»، في مرات عديدة، وهو يفتح الخطابات، قال له:

– سيدي العمدة، أخبرتك أن دائمًا سكرتيرك «إنبرج»، ليس رجلًا بارد المزاج فقط، بل رجلًا مزيفًا.

وجبة الظهر

16 فوق القطع الحجرية الضخمة التي تغوص بصمت في التراب، تنمو أشجار الكستناء، التي ضربتها الرياح مخلفة أوراقها الحمراء في الجو المكفهر.

وأسرع ساعي البريد عائدًا لتناول الغداء.

أحضرت «لاميلي» الطبق، وجلس «جوانيو» أمام الجاتوه.

تكوم فوق مقعده، وقد مس ذقنه الطبق، والجبهة الصلدة والعينان نصفا المغلقتين في رموشهما، دون أن يقول كلمة واحدة، بدون أي تداخل يبدو متوائمًا مع كل شيء، حتى مع مطر الإعصار الذي يضرب الزجاج الآن، راح يخضع ويفكر في خدعها. إنه ينظر إلى العناكب التي تعشش في الصومعة، قابعة لأيام عديدة في مركز السقف، ساكنة، لا تتحرك مستعدة للإفلات عند أقل محاولة لاصطيادها.

تسكن «لاميلي» هذا العالم الساكن، في مسكنها، هذا الثرثار، الذي غزت ثرثرته ثقة البلد كله، ولا يفتح فمه سوى للأكل،

وللشرب، وللتكرع، تجلس قبالته، وهي أيضًا تؤدي أعمالها الصغيرة، وتغمس في الطبق بلا شهية ملموسة. وبطرف عينيها ترقب رجلها، كي تمرر له - في اللحظة المناسبة - المشروب أو كسرات الخبز، منتبهة بشكل غريزي لكل شيء يخدم واجبها كزوجة.

انفجر الرعد، بالغ القسوة، مما يجعل المرء يقفز من مكانه، فيرتجُّ الزجاج في أماكنه، ارتعدت «لاميلي»، وهمست في صمت:

- «لعلها تمطر في مكان بعيد».

خاب ظنها، فالريح توقفت فجأة، وما لبث المطر أن هطل.

***

شرب قهوته، وقبل أن يعود إلى المحطة، صعد ساعي البريد إلى غرفته، وأغلق بابه لينام قيلولته. من النادر أن يتأخر في النوم على سريره، فهي الساعة التي يجب ألا يزعجه فيها أحد، يجب أن يسخِّن قليلًا من الماء عن طريق مصباح السبرتو، وبأصابعه الضخمة ذوات الأظافر الصفراء، تصفح من الخارج المظاريف التي يهمه أمرها.

لم يكن الصيد سيئًا اليوم، في الصندوق رسالة موجهة إلى «كوفان» والذي أكد على خيانة توصل إليها «جوانيو» منذ عدة أشهر، سيكون العمدة سعيدًا.

لكـن رغم هـذه النعمـة، فإن سـاعي البريد ظـل شـاردًا، ممددًا فوق السـرير، وقد ركز عينيه نحو السقف، يحلم بالأشياء الرخيصة البوهيمية الصغيرة، مع مداعبات شـمس بيضاء، ومن أسـفل، تبدو ذراع السـيدة «فلامار» البيضاء، تشعل فيه نيرانًا أشبه بالجمرة تحت الرماد، تكفيـه محاولة.. ورغم محاولته الصغيـرة، قامت «لاميلي» بإعـداد طعامه، وسـكبت له القهوة. وأحس «جوانيو» أسـفل ركبتيه بحفيف التنورة. ألقى ذراعه حول ردفيها المكتنزين اللذين يعرفهما أفضل من جسده وبحركة وقحة جذب المرأة نحوه وعانقها، ولكن «لاميلي» تخلصت منه برقة:

- «أنت مجنونة، أليس كذلك؟ لقد دفئت يداي قليلًا!».

ضحك وهو يراها غاضبة، ولعق عصيره دون أن يقول شيئًا.

***

في السـاعة الواحـدة ظهرًا، وضـع «جوانيو» الكاب فوق رأسـه ثانية، ثم قام، كي يلحق بقطار الواحدة والنصف.

لقد حان الموعد، رغم كل شـيء، الإعصار ورخات مطر قصير للغاية، تضربها الأتربة والجو، وللحظة استعاد بكارته، وبسرعة عاد مخترقًا المقابر، حيث يلمع الجرانيت الأزرق تحت الشمس.

وفجـأة، توقـف «جوانيـو» بدراجتـه كي يمسـح جبهتـه، ها هي الجمرة الصغيرة المخفية، التي تشـتعل فجأة، وتضيء جسد ساعي

البريـد الضخـم الســاكن في طـرف الطريق، هنــاك، بعيــدًا عند أول الطريـق المؤدي إلــى غابة «لورān» كوخ أحمــر اختفى لتوه في ممر به أشجار. هذا الكوخ هو لـ«فليبيرت» الذي راح يبحث عن مؤونته في الغابة الجافة. ردد «جوانيو»:

- «حسنًا». وهو يتجه نحو المحطة:

- «العمل قبل كل شيء».

رئيس المحطة

17

عند المنحنى، أسفل الردم، نلاحظ هناك بأعلى، ونحن نجتاز فتحة الرصيف التي تبعد عن رئيس المحطة بمئة خطوة، رجل يمكن أن نميزه عن بعد بشكله المألوف من الأمام وهيكله النحيف الأشبه بـ«دون كيشوت»، لكنه ليس سوى «دون كيشوت» عجوز محني، وليس لديه شيء يقوم بغزوه.

نادى على ساعي البريد.

- «أليس هناك شيء من أجلي هذ الصباح؟».

أجاب «جوانيو» بقوة، وهو يرتب حزمة أوراقه:

- «بلى».

ضحك تحت شاربه الكثيف. إنه يعرف جيدًا ما ينتظره «رئيس» المحطة منذ أسبوعين. هذا المظروف الرسمي الأصفر، كتبه شخص أعسر، بدا له مشبوهًا. في اليوم الذي رفعه من صندوق المحطة. مشبوه، كان عليه أن يقرأه قبل أن يرسله: بذمتي، سوف يكون أحد الأشياء المثيرة للدهشة والفرحة في حياته.

تقدم رئيس المحطة متعجلًا.

قال «جوانيو»، وهو غير متعجل في أمره، وهو يسحب الخطاب البلجيكي من جيبه:

- «لا شيء آخر؟»

نظـر العجـوز، محبطًا، إلـى الأرض، إنه موقف مألوف بالنسـبة له، لكنه ليس خاصًّا. وبسبب أنفه الساقط، ورموشه الثقيلة، ولحيته القصيـرة، وظهـره المحنـي، فهـو دائمًا ينظـر إلـى الأرض أكثر من غيرها.

قال «جوانيو» متنهدًا:

- «هيا، أيها الرئيس، هذا يعني أن المعاش اقترب».

أجاب الرئيس بهزة من رأسه المراوغة، ووضع المظروف أسفل شريط قلنسوته وعاد من حيث أتى بخطى واسعة.

انحنـى «جوانيـو» يمينًـا ناحيـة ورش المصابيـح حيـث التقـى «فلامار» الذي يدخن غليونه، وقد غرق في عرقه وهو ينتظر القطار. بادر «جوانيو».

- «أخبرتك أن الجو حار على الطريق».

لم يكن الرجل يميل إلى الرد وأخذ يملأ زجاجته.

- «هل رأيته؟ هل تكلمت إليه؟».

جففف «جوانيو» عنقه، وجلس مبتسمًا، وضم يده اليمنى بشكل غريزي، حول دودة تتحرك، فمنذ أن دخل، وهو يفكر في شقة السيدة «فلامار». إنه ينظر الآن إلى العملاق وقد انتابته أفكار مسلية.

- «لقد رأيتها، نعم.. يتكلمون عنها.. بالمعنى. أنت تعرف أنها ليست مخطئة.. كلها أفكار مزيفة».

نفث «فلامار» الأشبه بثور هائج، تحت المايوه الملتصق بجسده، وارتفعت صدريته ثم سقطت كأنها امرأة تتنهد، وفجأة، قبض على يديه ومد أنفه:

- «لم أقل إنها مخطئة يا غبي! ولكن من الغباء أن يكون المرء مغفلًا!»

تبادل الرجلان نظرات صامتة، ثم غرق كلاهما في بحر من الأفكار المحددة.

ردد ساعي البريد أخيرًا:

- «النقود هي النقود».

***

في ركن من مكتبة، خلف نافذته المغلقة، جلس رئيس المحطة يتأمل الأرضية بين فردي حذائه الضخمين المبتعدين.

نعم، خلال شهرين سوف يحال إلى المعاش، وسيأتي رئيس محطة جديد للجلوس هنا، وسوف يبتعد عن امتلاك كل شيء، ترى أين سيذهب؟

إنه يتملك ناصية الأمور هنا منذ ثلاثين عامًا، ثلاثون سنة بلا خطة محددة، ثلاثون عامًا بلا خطأ كتابي واحد، والآن، المعاش، لا يمكن الهروب منه سوى بالموت.

ها هي وظيفته تنتهي، وجوده كرئيس محطة، ليس هذا بالشيء الجسيم، ولكنه وجود أراده نموذجًا بالنسبة له، فهو طيلة الثلاثين سنة، لم يلجأ إلى أساليب البهجة إلا المحطة التي رآها واجبه، حيث ظل يناضل بشكل بطولي ضد العادات السيئة كافة التي يقع فيها الناس. لا تدخين، ولا عشيقات، ولا حتى زوجة شرعية. (ما أن تتسلم القيادة يجب عليك، كي تمارسها، أن تظهر كشخص لا يحتكم للعواطف، وألا تبدي أي نوع من الضعف). والأمران الوحيدان اللذان اهتم بهما على المستوى الذهني، هما: هواية جمع الطوابع، ومكتبته، وبين موعدي كل قطارين فإنه يتفحص ألبومه، وأيضًا أحد الأربعة عشر جزءًا المجلدة التي منحها إياه أبوه الروحي. عاشق المسرح، إنها الأعمال الكاملة للكاتب «سكريب». وبعيدًا عن هذا فإنه يضحي بكل شيء: فهو «رئيس» محطة مثالي. واليوم، وهو على أعتاب أن يترك كل شيء وأن يدفن نفسه حيًّا، فإن الرضاء بأنه قام بالعمل يكفيه،

ولا يتبعه أي تعويض في بأسه.

في الخارج راح جرس الإنذار يقرع بحذر. القطار رقم 209 ليس ببعيد. ولحسن الحظ فإن خدماته موجودة. بدون أي متاعب.

ارتدى «الرئيس» قلنسوته.. وخرج إلى الرصيف. ربما أن هناك شيئًا ما عليه أن ينجزه، المرور، الركاب! ولكن كان رصيف «رئيس» المحطة خاليًا تمامًا.

***

رأس «جوانيو» يتطلع من وراء زجاج مصنع المصابيح الشفاف إلى «رئيس» المحطة يمر، وقد انعكس منه ضوء ساخر يشتعل وينطفئ بين أهدابه.

فكر في الإعلان الذي أرسله العجوز، منذ خمسة عشر يومًا إلى «الجريدة الصغيرة» «السيد. بالتأ، س، أعز، اقتصا. معاش، السر.. ودود. يرغب في السعا. والنس، جا. وغب، وقادر، لطيف ورقيق. يكتب يوميًا. بطاقته 349. سجل».

المقصود بالجملة الأخيرة، إنها مكتوبة بشكل اختزالي وترجمتها الكاملة: (السيد: بالتأكيد عمره ستون عامًا، وهو أعزب، واقتصادي. وقصير، وعلى المعاش، ودود، ويرغب في أن يكون سعيدًا، وهو جاد، وقادر، وجذاب، ورقيق، اكتب بيانات على رقم 0349 بالبريد المسجل).

عائلة فيليبرت - الصيادون في الطابور

18

خرج «جوانيو» من المحطة، ولم لا؟ ووطأ بقدمه فوق الدرب، والمؤخرة ملتصقة وراح يلف سيجارة قبل أن يدفع دراجته. وهو يفكر، في أن عليه التوجه إلى غابة «لوران».

***

«فيليبرت» اسم شجرة زيتون أسود صغيرة تنمو في وسط فرنسا، هي نحيفة والثمار قليلة وليست جميلة جدًّا، لكنها مليئة بالطاقة مثل الماعز. تسود خضرتها البلد طيلة الصيف. القدم حافية، ورغم شدة الحرارة، فإنها لا تترك خمارها الأحمر المعقود في شكل مثلث، أسفل ذقنها.

كما يبدو، فإنها ليست هنا، لقد نقلوها إلى «موبيرو» بواسطة شباب القرية المجندين، الذين أرسلوها لأداء الخدمة العسكرية في «ناربون». مات الشاب بدون أن يصرخ منذ عامين وهذه مأساة فتاتين في مقتبل العمر. من المستحيل أن يذهب للتنزه عند الآخرين. بسبب هاتين الصغيرتين. تسكن أسرة «فيليبرت» في

كوخ من الطين، يقع فوق أرض وحلاء تنتمي إلى المجلس البلدي، وهي تعيش حسب المصادفات حيث تربط المرأة الغلمان وتذهب لتجمع الخشب الميت.

يعرف «جوانيو» كيف يصل إليهم، عندما تنتابه الرغبة في ذلك. فهو يسلك درب الأشجار ويتصرف كأنه في حالة صيد، إنه لا يسير طويلًا حتى يصل. تتبعه الفتاة «دوسيل» دون أن ترتسم على محياها ابتسامة الاستقبال.. تتبعه في داخل الدغل الكثيف، تنقصها أشياء تمارسها ضد إرادتها ولكن لو خيروه، فيمكنه طرد الأسرة من كوخها، عن طريق العمدة، ثم إنه يلزمه عشرون أو ثلاثون قرشًا. كمكسب سريع. ثلاثون قرشًا. ثمن خبز يكفي يومين. ترى هل يستلزم ذلك حكايات، لن يستغرق الأمر سوى بعض الوقت.

عندما سيصبح الغلمان كبارًا. يمكن لأسرة «فيليبرت» أن ترسلهما إلى المدرسة. وتستأجر من أجل الغسيل. لديهم الكثير من المتاعب الآن، في العثور على نساء يقمن بالغسيل. إذن ففي خلال ستة أشهر، سوف تقترض مبلغًا يجعلها تقيم في «روباني» القريبة من «ناربون»!

ففي «روباني» لديها عمة عاجزة.. وهي تحلم أن تنام كل مساء في «روباني». حيث الناس - كما أقسم لك - ليسوا مثل أقرانهم هنا.

***

ومـن أعلى المكان، وهو عائد، رأى ثلاثتهـم، عند طرف الماء، وقـد انحنـى كل منهـم بين شـجر الصفصـاف: إنهم كسـالى القرية الثلاثة، ثلاثة من جرحى الحرب، الذين أسـماهم السيد «أرنالدون» في خطبته «أبطالنا» «باسكالون» و«تول»، و«هوستين».

تـرك «جوانيو» حقيبته عند طرف الكوبـري، واقترب في صمت من الصيادين الثلاثـة. يبدون بالغي الجمال في كل مرة يلتقون معًا. تجمعهم دومًا قوى سرية في الركن نفسه من المكان، وعلى المائدة نفسها في المقهى، وتحت الشجرة نفسها من المزرعة.

***

«بسكالون» يعرج، خاصة عندما يمر من القرية، إنه الأقل تقاعدًا، والأقل كسلا في الثلاثة. إنه حفار وإسكاف يعرف كيف يستفيد من عودته إلى البلد منذ العام الأول في الحرب: ففي الأمسية الاحتفالية لاستقباله التي أقامها العمدة. تم تعيينه حارسًا عامًّا للمقابر وسكن هنـاك فـي غرفة واسـعة وارفة الظلال بأشـجار الصفصـاف وعاش وحيـدًا. ولكـن خصومه الثلاثـة أرامل الحـرب الثـلاث زعمن أنه يدخـل إلى مسـكنه ليلًا، أشـياء غيـر جنائزية. ولم يعر «بسـكالون» هـذه الحكايات أية أذن، وهو يمـزح، ففي النهار، عندما يكون الجو لطيفًا، وعندما يتنسـم الأعرج سـمة العمال يظل أسفل ظل الكنيسة ويتذكـر مهنته القديمة في الزمن الذي كان يكسـب فيه قوته، يجمع الأحذية الكبيرة، ويلم الجراميق القديمة مما يشـبع طيشه. إنه قصير

ليست له شعرة واحدة في وجهه الدائري والوردي، تلمع سرجتان متباعدتان. وعندما لا يكون في المقبرة أو الكنيسة، يشاهد في المقهى، يقدم له كل الزبائن الكؤوس، فكيف يقاومون سحره، وهو يدور مترنحًا حول الموائد، يرمش بعينيه ويطلق بصوته الساخر:

«صباح الخير يا زملاء! أليس لديكم كأس؟»

أما «تول» فهو أكتع في ذراعه اليمنى، وهذا لا يمنعه من الصيد بالصنارة، لكنه يعوقه في العمل. فرنسا، وأخته السيدة «بوس» زوجة صاحب المطعم، تقومان بتغذيته، إنه يسكن المقهى، يستيقظ عند الظهيرة. ويسلك طريق «لابورس»، وفي يوم الأحد، يجلس على المائدة. ويبدو كأنه يساعدهم في العمل. أكثر ما يفعله هو العزف على البيانو الآلي. والأهم هو أن يحصد المزيد من النقود التي تلزمه في دخول المرقص بالإضافة إلى تدبير ثمن تبغ الأسبوع، أما بالنسبة لنقود الدولة؛ فإنه يدخرها لنفسه. أما الثالث، «هوستين» فقد أصيب بالتسمم وهو الأشد حمية؛ لأنه ظل محتفظًا بالزكام، وهو عملاق أشقر، فاتر الهمة، ووجنتاه مغطتان دومًا بالزغب الخفيف، يمشي فاغر الصدر لا يكف عن السعال، أو التشنج (كما تقول أرملات الحرب)، إنه يغالب الزمن حيث عليه أن يتمثل طيلة الشهور باحثًا عن استشارة. لقد ظلت زوجته التي غادرت القرية أثناء الحرب تبيع أثاث المنزل، وعندما عاد لم يجد سوى البيت وكلبه «جاريبالدي»، كلب أصفر وأشعث مثل سيده. كلب سيرك حقيقي له العديد من

المزايا. ففي المساء يقوم «هوستين» معه بجولة في المكان.

تصاعدت روائح منعشة قريبًا من الأماكن الرطبة بين البوص والنهر الصافي الذي يجري في مصبه، ويبدو في تدفقه داكنًا متقاطعًا مع الأعشاب الطويلة، والأمشاط بالغة الوفرة.

- «خرجت سمكة واحدة فقط». نفخ «تول»:

- «اسكت».

همس «باسكالون»:

- «تعض أكثر من الناموس!».

كان «هوستين» بعيدًا شيئًا ما عنهما، وقد استند على جذع الصفصاف وبشكل غريزي، فقد اختار المكان الأكثر ملاءمة. حيث منعطف النهر، وحيث تراكم الزبد مشكلًا كتلًا أشبه بالبثور، وقد غاصت قدماه الحافيتان في المياه الجارية رغم دكنتها. غلبه النعاس. ولحسن الحظ، كان «جاريبالدي» جالسًا خلفه، وجردل معلق قريبًا منه، وهو يرقب القنينة.

وقف «جوانيو» قريبًا من تجمعات الناموس التي راحت تقترب من أذنه، ثم تطلع إلى جريان المياه لحظة.

استدار «باسكالون» نحوه، وهو يبتسم ملء شدقه:

- «ألا يوجد معك كأس؟».

ماري - چان أرنالدون - «جوانيو» عند العمدة

19

وصل «جوانيو» أمام منـزل العمدة، تطلع عند مفترق طرق مفتوح نحو الدور الأول. حيث تنسـاب نغمات موسيقية خفيفية كأنها صادرة من حلقة مفاتيح تسقط أرضًا فيصل صداها حتى الشارع.

قـرع «جوانيـو» الجـرس، توقـف النغـم الموسـيقى فـي الحال وظهـرت الآنسـة «أرنالـدون» في النافـذة، إنها على وشـك أن تبلغ الثلاثين، عانس لها شـخصيتها، ابتسـمت إلى ساعي البريد، وكأنها تتوسم فيه أن يأتي إليها بما يسعدها.

- «صباح الخير يا سيد «جوانيو».. إني قادمة».

ظل السـيد «أرنالـدون» أرمل منذ فتـرة، «ماري چـان» هي ابنته الثانية، الوحيدة التي تعيش على مقربة منه.

هناك بين الشقيقتين ما يمكن تسميته في «موبيرو» بسعادة العالم، وفي الواقع فإنهما لا يفتقدان ألبتة هذه السعادة.

منـذ حداثـة سـنهما، فإنهمـا محظوظتان، لقـد أقامتا في سـكن داخلـي في المدينـة الكبيرة، من أجل الحصـول على تعليم خاص،

يفيدهمـا طيلـة حياتهما، ثم عادتا إلى «موبيـرو» في ربيع عمرها في انتظار الزواج. إنهما تعيشـان وجودًا بلا تجارب. تحت رقابة العمة «نويمـي» الطيبـة القلـب، العجوز العزبـاء التي تسـكن وحدها عند الجناح الثاني للمنزل القديم.

مرت السـنون، السـنة وراء الأخرى، وهاتان الآنسـتان قد قصتا شـعريهما منذ مـدة طويلة على طريقة سـانت كاتريـن، بينما انتابت الكبرى مشـاعر الخوف غيـر المباح أن تصيبها الشـيخوخة دون أن تحصـل على زوج، أو أطفال مثل العمـة «نويمي» التي اضطرت أن تتزوج من رجل في مثل عمر أبيها، مزارع بدين من «بورج – إيلوا». ظل أرمل مع ابنة غير متزوجة.. استأنفت حياتها هناك سعيدة، كامرأة مرغوبة. تكد من الصباح حتى المساء في مزرعتها. بين هذا العجوز المتعفـن، وهذه الابنـة الغيورة التي لـم تغفر لها دخولهـا حياتهما. يجب أن يكون هناك شـيء تشكو منه، يئست «تيريزا» من الحصول على زوج حقيقي لم يبلغ الكهولة حتى تأمل أن تنجب أطفالًا.

كانـت الحكمـة المثاليـة لأختهـا، قد دفعـت «ماري جـان» إلى البحث أيضًا عن السـعادة في الزواج، مؤكدة ذاتيتها كعانس. تحس بالمهام الأسـرية لكنها عنسـت بشـكل إيجابي، كما يـردد الجيران. فهي شـهوانية ولا تعـرف كيف تقـاوم غرائزها قط، وهكـذا بعد أن حلمت طوال طفولتها بدراسة الموسيقى، إلا أنها لم تمارس الإيقاع في الكنيسـة حتـى تكـرر الموقف السياسـي لأبيها، قررت السـيدة

«أرنالدون» أن تشـتري لها بيانو ظل قابعًا في مكان منذ عدة أجيال. تحت غطاء مزدوج من الكرتون والأتربة في صالة السـيدة «ماسـو» آلة ثمينـة تصدر صوتًا حقيقيًّـا، ولكن الأصوات الجهيـرة لها طابع جيد أقرب إلى الإيقاع الصيني. كان «المذرون» العجوز من المدينة الكبرى، ضريرًا، يتمتع بشـهرة كموسـيقي نمطي واسـتطاع أن ينقل إليها شـيئًا فشيئًا أغلب ملاحظاته، ومن أجل استكمال عمله الجيد، كان يعطي مرة كل أسبوعين درسًا لـ«ماري چان»، وصار السفر إلى المدينة بالنسـبة للعانس، فرحة نصف شهرية، تعد لها نفسها مسبقًا، وهـي تتأهب لدرس الموسـيقى. تنظف قفازاتهـا بالبنزين وتحتفظ بطبيعـة بالغة الحيوية، وفي كل مرة تقضـي الفتاة ليلتها بلا نوم، تمر أمام عينيها مشـاهد للأشـياء الأكثر وردية والمألوفة، ولكن، يا إلهي إن بـذرة الجنون وحدهـا تعطي للحيـاة طعمًا.. والجيران.. ليسـوا على خطأ. فمهما بدت جادة، فإن «ماري چان» تحب متعتها.

***

لا يسـكن «أرنالـدون» سـوى في غرفـة بالدور الأرضـي: صالة طعـام. وعندما لا يمارس الجري وهـو عاقد يديه حول صدره، فإنه يجلـس هناك أمـام المائدة، التي لم تعد كصالـة للخدمة أبدًا، حيث تتجـاور الملفـات إلـى جانـب الأطبـاق القـذرة وصحائـف الزبد، وخليـة الخبز، كل شـيء كما هو. «أرنالدون» هـو أول من يأكل في الناحية.. وبما أنه في الإدارة، ودائمًا ما يصوم سـاعتين. عشر مرات

يوميا، يفتح الباب ويصرخ على السلم: «ماري چان»، أريد أن آكل. وكالعادة، فإن «ماري چان» تصل ومعها بيضتان موضوعتان في إناء طهي البيض، أو طبق لحم بارد، أو جبن ماعز مدموك أحيانًا بالرماد.

لكن، ليس هذا سوى وجبة خفيفة يجب أن يراها العمدة، في بداية كل وجبة، بينما تضع ابنته الإفطار، وهو واقف وقبل أن يجلس يطلب طبقًا من لحم الخنزير المفروم بالخضرة يوضع فوق شرائح الخبز الطازج، مغترفة من الأرض والغابة. المعجزة هي أنه لا يسبب أي ضرر رغم احتفائه أثناء الهضم، ويخرج من المائدة عندما تفرغ الأطباق. يشرب فنجانًا مليئًا بالقهوة، وكأسين من كونياك، ويشعل غليونه، ويتجه إلى غرفته، ويعود إلى أعماله، وقد تهيأ إلى ابتلاع بيضة بكاملها.

عند دخول ساعي البريد وضع السيد «أرنالدون» جريدته، ورفع رأسه:

- «أخبرني يا «جوانيو».. هل أنت مستعد للحضور معي.. مكتب الشرطة جاءته رسالة تخص احتفالات عيد الفصح: يريدون وضع العجوز تحت الحراسة أخبرني الشرطي أنه سوف ينزل على الفور إلى «مولان بلان».

كانت للعمة دائمًا طريقة مبتسرة في الكلام، ليست لها مثيل في البلدة رد ساعي البريد وهو يجلس:

- «سوف تمزح».

- «البلاغ مقدم منه. لكن هذا لا يهم».

- «وأنت يا «جوانيو»، ما الجديد؟».

همهم ساعي البريد، الذي أبدى ما يعتمل به:

- «إيه.. سوف تقول إنني أثرثر، سيدي العمدة.. انتبه من خيال المآتة: فإن به خصلة من سماتك».

هز السيد «أرنالدون» كتفيه:

- «ما دمت لن تأتي لي بإثبات!».

أخذ «جوانيو» من فوق المائدة علبة التبغ، ووضعها بين ركبتيه، ودون أن يضغط عليها، لف سيجارة رفيعة، تم سحب ورقة من جيبه، وبكل هدوء:

- «إثبات؟.. ها هو».

وراح السيد «أرنالدون» يقرأ بصوت خفيض:

- السيد «كوفان»..

.. في «موبيرو»..

«كلفني السيد «بيل» أن أذكرك بحصولك على معلومات مؤكدة وجهتها له في رسالتك المؤرخة في 22 الحالي، والتي ستكون

محددة بالنسبة له أثناء حملته الانتخابية. وطلب مني أن أنقل لك شكره وكل مشاعره بالمودة».

«سكرتير اللجنة الوطنية»..

«فابر»

راح «جوانيو» يرقب العمدة بطرف عينيه، وانتظر منه مديحًا، لكن «أرناندون» وضع الورقة فوق المائدة، وقال بغلظة:

«ليست هذه هي الرسالة التي يجب أن نحتفظ بها يا «جوانيو»، ولكنها الرسالة اثنان وعشرون».

ولم ينزعج «جوانيو»:

- «صبرًا.. لديّ زميل في المجموعة الأخرى، وهو فوق الأثر».

هذه المرة، عبَّر السيد «أرناندون» عمَّا ينتابه وهو يهز رأسه.

علق ساعي البريد حقيبته، ومد ذراعه، حتى يلمس بأصابعه طرف المائدة.

- «ليس هذا يا حضرة العمدة، الأمر يتعلق بالتفكير قليلًا فيّ. فأنا في حاجة لنقود».

- «أيضًا؟!».

- «أيضًا! لم أقبض مليمًا منذ شهر يونيه، يجب أن أفهم أشياء، أنت ترى أنني لا أتاجر بمتاعبي، وبلا غرور، وأنني أعمل باخلاص لانتخابك. ولكن كل وقتي يمر. ولا أجد ساعة في يومي كي أعتني بحديقتي، ويجب أن نشتري لـ«لاميلي» كل خضراواتنا، فالحياة غالية، بيتي خالٍ من النبيذ، فهل يجب أن تلزمني نصف قطعة قبل قطف العنب وكل ما هو مقدم؟».

نظر العمدة إلى ساعي البريد وهو يتكلم، والأهداب ترتجف والشفاه فاغرة، سحب من غليونه بعض الأنفاس زفرها كالرصاص. وأطلق «جوانيو» النفحات الأخيرة:

- «لو أردت أن أكسب أكثر. فليست عندي سوى كلمة لأقولها حتى أحقق تقدمًا. وأنا عندي الحق، ولكن، ما دمت أستطيع العيش هنا، وما دمت مفيدًا لبلدي، فسوف أظل في «موبيرو». فقط، أنا في حاجة للمساعدة.. يجب أن نفهم الأشياء، يا حضرة العمدة».

ودون أن يرد، أخرج السيد «أرنالدون» حافظته من جيبه وفرد تذكرة عرضها على المائدة المربعة.

كان أمام «جوانيو» بعض اللحظات كي يمد له يده، ويعبر عن شكره، إنه من الغباء، إذا كان هو الرئيس المسؤول مهما كان منه في كل الظروف، ففي كل مرة يتلقى النقود، يقفز الدم من حنجرته، وهذا أمر يثيره كل لحظة، كان أشبه بشخص أصابته صاعقة.

مدام سيكاني - مدام جوديه - مدام توش، أرامل الحرب

20

صاح «جوانيو»:

- «سيدة «سيكاني» لديّ أخبار من قديسك المبتدئ».

«أوجستين سيكاني» خريجة المدرسة الإكليركية الأسقفية.

جمّلت السيدة سيكاني «شفتيها» وأمسكت الرسالة بنظرة مليئة بالشكوك.

وأسرع ساعي البريد بترتيب الأمور:

- «خطة جميلة» طفل الكنيسة، ولن أقول غير ذلك!

صاح كل من السيدة «جوديه» والسيدة «توش» معًا:

- «بالتأكيد!».

كل أيام الله الحلوة، صباحًا ومساءً تلتقي السيدة «جوديه» والسيدة «توش» في منزل السيدة «سيكاني» للعمل. هن ثالوث أرامل الحرب. متقاربات في السن. كل منهن كانت لديها ابن كبير

شهيد الوطن. كما تربطهن أشياء أخرى: فساتينهن السوداء ورعبهن وثرثرتهن ومشاعرهن بالمرارة تجاه أزواجهن الراحلين، ومشاعر الحقد الكامنة حول الرجال الذين ضاعوا في الحرب وادعاءاتهن بالإحالة إلى المعاش، وعفة الكبرياء التي تنخر في أدمغتهن بعد أن ضمرت أجسادهن.

تسع أو عشر ساعات يوميًّا، يعكفن على حياكة الحقائب الكتانية الخشنة، التي تستفيد منها مصانع المدينة الكبيرة. عمل شاق يدمي الأصابع ويثير القصبة الهوائية مقابل سعر زهيد، لكنه عمل يتم في البيت، ما دام مطلوبًا حيث يحرص العمدة أن يحصل على نصيبه؛ لذا فهن يرتجفن كل أسبوع كمن يقمن بفك الرهن.

***

السيدة «توش» شخصية لها وزنها، ذات وجنتين تشبهان اللحم النيِّئ. حاصلة على شهادة لا بأس بها، تجيد التعبير عن نفسها باختصار، وتعطي النصائح في وقتها، وتوخز بالإبر وتقدم المعلومات الطبية. وضعت ابنها عند طبيب في المدينة الكبيرة، عليها تدبير المنقوع المغلي، والمراهم لاحتمال ظهور مرض في القرية. تطير السيدة «توش» وهي نائمة فوق مخدتها خاصة - مثلما يقول الأشرار - إذا كان هناك رجل، تتعرى وتبرطم وتدعك يديها، وتنكشف وتهتم بتدليك البطون وعمل كاسات على الصدور

والمصاص فوق ثنيات الفخذ وتستطيع سبر غور المثانات الكسولة. وتظل مشاعرها بالامتنان حتى لو كانت مريضة، تحضر بشكل تطوعي المعاناة، وتتأهب دومًا للحظة الموت. وتقدم توصيات محدودة للشباب الصغار. وترقب الأزواج متدفقي الخصوبة والعطاء دون أن يشعر أحد. تتواصل معهم حسب الحالة، وتقدم لهم بعض الكتالوجات التي تقوم بثنيها وترسلها مع البريد دون أن تشك أن «جوانيو» يتصفحها قبلها بشكل سري.

أما السيدة «جوديه»، القادمة من «ليونتين» فهي الأصغر سنًّا بين الثلاثة، ولا يبدو عليها قط أنها تنسى كم كانت شقراء وحسناء. فهي تحمي دومًا بشرتها من الشمس، تعلوها دائرة من الظلال الوردية المطلة حول عينيها المنكسرتين. تركز حياتها حول ابنها، القزم النحيف، الضعيف البنية الذي خصصت من أجله منحة للمدرسة الداخلية في المدينة الكبرى.

وعندما يأتي في إجازة يتجول في القرية في ملابس يوم الأحد، وتوقف الأم أعمالها كافة كي تستفيد من إقامة ابنها ولا تتركه يذهب إلى المقهى مع الآخرين، وتصطحبه بنفسها إلى الحلاق.

وفي عيد الميلاد، أصاب الغلام التهاب شعبي قوي، وأرادت مدام «توش» أن تعتني به، لكن أمه لم تترك صديقتها تدخل قط حجرة الشاب مما أغضب السيدة «توش» بشدة وتملكها الرعب

على مشـاعر الأمومة للسـيدة «جوديـه» التي لم تُخـفِ عن أحد أن السيدة «توش» أرادت أن تجرب فضيلة ابنها.

أما مفتاح هذا التجمع، فهي السـيدة «سـيكاني» وبسبب اسمها، الذي يعني العنق الطويل، فقد سـموها «البَهجة»، تضع رأسًـا حزينا فوق جسمها مطعمًا بالتوترات النبيلة الكئيبة، لاحظت القرية كلها أن مشـاعرها تبدو قوية، ومنذ أن التحق ابنها بالكنيسة، فإن أحزان هذه القديسـة تضاعفت بشـكل تلقائي، وزادت تشققات شفتيها. ببعض العدوانيـة وكأنهـا تغنـي: «لم أبتسـم منـذ أن صرت أرملـة» العينان بالغتا الشـحوب وسط بشـرة سـمراء، رغم أن ماء العينين صاف أو متغيـر وطريقتهـا في النظر حولها تثبت أنـه لا يوجد رجل مطلقًا في القرية، ومن بينهم السيد القس، الذي لم يسأل نفسه، على الأقل مرة واحدة، إذا لم تكن السيدة «سيكاني» قد فتنت به. أما المزاح عندها فليس سـوى كلمات مواراة، وتنظر إلى الرجال بشـهوانية، وبحركة ودودة بالقبعـة، تترك نفسـها أحيانًا - عن طيـب خاطر - لذا فهي - أكثر من مرة - تعرضت لمواقف شهوانية.

***

رغم أن منزل السـيدة «سيكاني» صغير، كأنما أصابه الوباء يومًا. فـإن «جوانيـو» عندما أتيحت له الفرصة أن يغامـر قد نبش بمخالبه، ولـو كان في إمكانـه أكثر، فإنه من خلال المكالمـة الودية يمكنه أن

يجري معها ثرثرة ذات فائدة. همست السيدة «توش» التي يبدو أنها جاءت من المدينة الكبيرة بصبية مثلها:

- «أيام العيد».

وأنهت السيدة «جوديه» الكلام قائلة:

- «من أجل ممارسة أفضل للعمل».

ويدور الحديث - حسب المزاج - عن المستقبل. لكن ساعي البريد لم يمسك لتوه أي شيء قادم يأتي بالمال.

استدارت السيدة «توش» نحوه:

- «سيكلمنا السيد «جوانيو»، عنها كثيرًا؛ لو أراد».

- عَمَّن؟

- عن زوجة «فلامار».

باعدت ابتسامة وحشية بين شفتي السيدة «سيكاني»، دون أن ترفع عينيها عن الرسالة، التي تقرؤها. وقالت بشكل محدد:

«نساء مثلها يجب أن يضربن بالكرباج في ساحة الكنيسة. مثلما كان يحدث في زمن الملوك».

ضحك «جوانيو» ساخرًا:

- «سأكتفي بذلك على أكمل وجه».

وحدجـت فيه ثلاثة أزواج من العيـون كأنها تطلق عليه رصاصة سريعة!

وتحرك خبب النساء أو الجياد الأربعة التي ترمي في الشارع.

- «سوف يعود الجنود».

دقق فيهن ساعي البريد، كشخص يعرف الكثير، ثم جمع حقيبته، وأسرع يأخذ هدنة.

الجنود عند بـاكـو

21

مربوطة أمام بيت العمدة، جياد الشرطة، وقد أنهكتها الحـرارة، يغلبهـا النعـاس، في ظل شـجرة الكسـتناء تواصلت الأخبار بشـكل مختصر مـن أول القرية إلى آخرها: «لقد تم القبض على آل باكو».

***

مـا حـدث بين جـدران «مـولان - بـلان». ومنذ أمـد طويل أمر غامض، فإن «جوانيو» لم يجتز قط حاجز المزرعة. فإن أسرة «باكو» لديها كلبان معروفان بالنباح التحذيري.

ينتمـي الخبر إلى السـيدة «باكو» يعرفه النـاس جميعًا في القرية، فأثناء الحرب فقد الأب «باكو» ولديه الكبيرين في سـاحة الشـرف، ثـم فقـد امرأتـه، وبقي له ابن في السـابعة عشـرة، أو الثامنة عشـرة، يسـمونه «التونكي» وابنة، أصغر سـنًا، وقد شـوهدا دومًـا عن بعد، يزرعـان أرضيهمـا، ويُرى دومًا قريبًا منهما طفـل صغير في الرابعة، أو الخامسـة، جـاء إلـى الدنيا، بلا شـاهد، ذات ليلة شـتوية، وأعلن «التونكيتـوا».. أنه مجهول الأب، أما بالنسـبة للعجوز، فإن أحدًا لم

يره منذ سنوات، بمعنى أنه حتى هذا المساء لم يكن هناك شيء يثير القلق حوله، لكن حضور رجل الشرطة قدح المخيلة، فلعل العجوز قد تعرض للضغوط وللحظة فإن الشك لم يساور أحدًا، ولكن ترى ماذا حدث للجثة؟ هل تم دفنها في ركن من الحقل، أو أحرقت في فرنهم القديم؟

***

وصول الموكب

في المقدمة، ضابط الشرطة، ومعاوناه الاثنان، ثم العمدة، والسيد «إنبرج» يصحبهم خيال المآتة وساعي البريد، وعلى مسافة مناسبة، هناك أهل القرية، دون تحديد للحزب «هوستين»، و«تول»، و«باسكالون»، و«بوس»، و«كيرول»، و«آل ميرلافين»، و«فردينانـد»، و«بوبيود» الحداد، وكل صبية المدرسة في الخلف، وكأنهم في جنازة. ثم تأتي النساء على مسافة بعيدة قليلة، عند آخر نقطة من الحراسة. وكأنهم في نزهة غير معدة سلفًا، وشقيقة القس، الآنسة «فيرن»، تستند إلى كل من الآنسة «ماسو» و«سلستين».

ما أن وطأ رجال الشرطة أرض المزرعة، حتى خرج كلبا «باكو» المربوطان في الفناء، بعيدًا عن وكرهما، وقد برزت أنيابهما للخارج، وراحا يهزان سلسلتيهما، محدثين ضجة هائلة. عبر السياج، شوهد باب المزرعة الضخم ينفتح، وينغلق لتوه. توقف

الموكــب، ظهر الضابط، بلا مشــاعر وتقــدم وحده، نحــو الحاجز، وساح وسط الصمت:

- «هل أنتم هناك يا آل «باكو»؟».

تراكم الكلبان وراحا ينبحان بكل قوتهما، وكان على «هوستين» أن يتعلق بسلســلة «جاريبالدي»، المتأهب لمساعدة السلطة عند أي بادرة.

ومرت لحظة.

وعنــد العتبــة، ظهر شــاب نحيــف، ذو عينين مغوليتيــن، وجبهة صفراء منخفضة، وهمست الجموع: «التونكيتوا».

أغلق الباب خلفه، ونظر إلى الضابط، دون أن يتقدم نحوه بخطوة واحدة:

- «ماذا تريدون؟».

- «أسكت كلبيك، وافتح لنا الباب الحديدي».

كان الصــوت قويًّا، وشــكل تهديدًا اهتزت لــه كل القلوب وفتل «التونكيتوا» شاربه للحظة، ثم أطاع دون إسراع من جانبه.

وراحت مجموعة العمدة تتبع الضابط، دخل المكان في شجاعة ملحوظة، أما باقي الجمهور فقد توقف لتوه خلف السور.

- «هل يسكن أبوك هنا أيضًا؟».

تردد الشاب ثم استدار، وأمسك رأسه:

- «هذا لا يخص أحدًا».

- «معذرة، الأمر يهمني، يجب أن أتحدث إليه».

- «ماذا تقول له، سوف أبلغه».

- «لدي ما أكلمه فيه على الأقل، وبشكل شخصي..».

تحدث الضابط بشكل محدد، وهو يخطو نحو المنزل.

ظل «التونكيتوا» مزروعًا أمام الباب المغلق، وقال دون أن يحرك عينيه:

- «لا أعتقد أنه يمكن الدخول هكذا إلى بيتنا! لا.. أبدًا».

وضع الضابط يده على زناد مسدسه وسرى همس بين الجموع، إنهم لا يحبون مطلقًا آل «باكو»، لكنهم يكرهون الشرطة أكثر.

من جراب المسدس، سحب الضابط ورقة وضعها تحت عيني المزارع.

- «انظر جيدًا يا «باكو»، ليس هذا طيبًا بالنسبة لك. أنت متهم بحبس عجوز دون دفاع عن نفسه، نحن هنا في خدمة القيادة، كي يخرج الأمر إلى الضوء اتركنا ندخل، وإلا..».

وأبدى الشرطيان حركة وكانا على استعداد للإمساك بالرجل وأن يمد له بالأصفاد. رفع عينيه المتوحشتين المطاردتين وهو يتفحصهما، الواحد تلو الآخر، الشرطيان، والعمدة وكل الذين دخلوا الفناء، بكل غضب، وهو يهز كتفيه، قال وكأنه يبصق:

- «أنتم تثيرون جنوني! ادخلوا إذا كان هذا يرضيكم!»

ثم طرق الباب بإصبعه، وأمر بكل جفاء:

- «افتحي!».

وسمع صوت المزلاج يتحرك، وانفتح الباب على عقبه.

إنها قاعة مغلقة مظلمة تمامًا، ومليئة بالأدخنة.

تراجعت الفتاة «باكو» إلى نهاية الغرفة حيث يوجد سرير تحت تمثال من الصلب للسيد المسيح، تبدو نحيفة وبلا ردفين. في قميص قصير، والرأس مخفاة في مئزر منزلي، لم يُرَ منها سوى لون أحمر داخلي، ومن أجل الدفاع عن أخته، فإن «التونكيتوا» وقف قريبًا منها.

ردد الضابط بعد صمت:

- «حسنًا، والأب أين هو؟».

قال الشاب:

- «في غرفته».

- «أين هو؟».

- «في غرفته».

- «أين هو؟».

رفع الابن وأخته، يديهما نحو باب منخفض أسفل السرير، قال الضابط:

- «دلني على الطريق».

استدار الرجل نحو أخته، ثم اتجه نحو الباب وفتحه حيث ظهر حوض مبلل داكن في الأعماق ثم باب آخر. أدار الابن «باكو» المفتاح فيه بنفسه.

انحنى الضابط كي يدخل في غرفة صغيرة تبلغ مساحتها أربعة أمتار، حيث انبعثت رائحة كريهة وفوق سريره الصغير جلس رجل عجوز يرتدي قميصًا جديدًا وقد عقد يديه المبللتين فوق ركبتيه. احمرت عيناه دون أن تعبرا عن شيء وراح ينظر إلى الوافدين.

بدا العجوز كأنه معلق في مكانه، لا يمكن أن يظل واقفًا إلا عند المدخل فلا يوجد سقف، وفي وسط القرميد المهشم، بين دعامتين، عاش يومًا عصيبًا محددًا وواضحًا، الأرض من الطين عليها مقعد، وهناك قصعة نظيفة، وأمام سرير حقير، يوجد جردل مرحاض بلا غطاء وفارغ لكن ترى من أين تفوح رائحة الأمونيا؟

قال الضابط:

- «صباح الخير أيها الأب باكو..».

رفع العجوز المدهوش عينيه نحو الضابط ولم يرد.

«ماذا تفعل إذن في هذه الغرفة الضيقة؟ لماذا لا تجلس في القاعة مع ولديك؟

صاحت الفتاة بكل وقاحة:

- «هذا يعجبه كثيرًا».

استداروا جميعًا، بمن فيهم العجوز نحوها كانت تتحدى، بدت لهجتها كأنها تضيف مهانة على موقفها.

«أنا أتكلم إلى العجوز، دعيه يرد.. لماذا أنت هنا يا أبي العجوز في هذا الوقت الجميل؟ إنه غير صحي.. ألا تحب أن تكون بالخارج؟»

نظر العجوز إلى ابنته، ثم ابنه، ثم إلى الضابط ولم ينفث بكلمة.

ردد الضابط: هيا قم لقد جئنا نأخذك إلى الهواء. عندي فكرة أن وجودك هنا ليس أمرًا طيبًا».

«علقت الفتاة:

- «بصراحة إنه يسعد حين يكون هنا!».

أبدى الضابط حركة كي يمسك «باكو» من ذراعه، لكن العجوز تخلص منه بحركة مفاجئة غير متوقعة.

«لا!».

ضحكت الفتاة ساخرة.

- «ألا تريد أن نساعدك؟ حسنًا قم إذن، وتعالَ إلى القاعة كي أشرح الأمر لكما أنتما الاثنين».

- «لا!».

- «لماذا؟».

ران صمت.

- «هل تخاف من ولديك؟». زمجر العجوز:

- «لا أخاف من أحد!».

- «إذن لماذا تحبس نفسك هكذا؟».

احتجت الفتاة:

- «إنه ليس محبوسًا».

- «معذرة، المزلاج لم ينفتح إلا بمفاتيح بابين من الخارج، هذا اسمه «حبس»». برطمت الفتاة:

- «حتى لو كان على ما يرام هكذا؟ دعونا في حالنا!».

كرر العجوز بنفس النغمة الحادة:

- «دعونا في حالنا!».

قال الضابط:

- «هيا، الأمر بادٍ للعيان، ولذاك حبساك هنا من أجل أن تكون لهما السيادة ويستغلا مكانك ومكانتك!».

قالت البنت من بين أسنانها:

- «كذب!».

ونظر إليها العجوز، وتمتم:

- «كذب..».

شرح «التونكيتوا»، وقد بدت عليه شدة اليأس:

- «إنه رجل عجوز، وهذه ليست قوته، ولم يعد في كامل عقله، يريد البقاء، حتى ينعم بالهدوء هنا، يسد جوعه حين يريد وينال كل ما يوده، أليس كذلك يا أبي؟».

- «بلى».

وتدخلت الفتاة:

- «والحذاء الخفيف الذي يضعه في قدميه، أنا التي طرزته له، لأن البرد يؤلمه دائمًا في ساقيه أليس كذلك؟!».

- «بلى».

تقدم الابن خطوة:

- «اكشف عن صدقك إلى رجال الشرطة!».

وبكل هدوء بحث العجوز تحت فراشه، وسحب علبة الغليون الداكن، لفافة جرائد بها بعض التبغ. قال «التونكيتوا» منتصرا:

«نحن لا نرفض له شيئًا، نلبي له كل رغباته.. أليس كذلك يا أبي؟!».

- «بلى».

ظل الضابط مرتبكا، ومتوتّرًا:

- «ما دام كل شيء على ما يرام، فلنذهب».

انحنى ثم وضع يده على كتف العجوز:

«لنَر، أيها الأب «باكو»، للمرة الأخيرة. أخبروني بالحقيقة، لم يصبك سوء، لماذا أنت هنا؟ هل يعجبك هذا؟ أم لأنك هنا رهينة؟».

هز العجوز رأسه، دون كلمة. وانفجرت الفتاة:

- «فيمَ يهمك هذا؟ أليس السيد في بيته؟ نعم أم أن هناك لعنة؟».

صاح الأخ:

- «أغلقي فمك».

وألقى الأب «باكو» نظرة إهانة إلى ابنته، ثم كرر، كأنه الصدى.

- «هل أنت السيد؟ نعم أم أن هناك لعنة؟».

وران صمت.

وجه الضابط رأسه، وهو يختبر رجاله، والعمدة، وخيال المآتة، وساعي البريد، وأخيرًا اتجه نحو الباب:

- «أنا سوف أنسحب لقد جئت كي أخلصك من هذا، وإذا كنت راضيًا هكذا كي تختنق في هذا الثقب الضيق فهو أمرك! وحسب مزاجك!».

في الفناء، تكدس العشرات، أكثر شوقًا، وقد تجمعوا في الشمس أمام الباب الأخضر.

رمقتهم الفتاة، بغضب بادٍ. رفعت قدمها في الفتحة وأمسكت بصندلها وكأنها تود أن تضرب به الضابط، لكن يد أخيها ضربتها فوق قبضتها فرمت بالصندل، بصرخة غضب، وهي تقول:

- «أليس من المخجل أن تتصرفوا هكذا؟».

وفي الخارج، علت السخرية فقد انتهت المأساة بشكل يثير الضحك.

زمزم الضابط:

- «هيا، لا تجتمعات، تحركوا!».

واستدار نحو السيد «أرنالدون»، وأعلن بصوت مسموع:

- «لقـد رأيتـم الأمر كما هو عليه، يا سـيدي العمـدة، ليس لديّ ما أقوله، سوف أكتب تقريرًا بذلك».

وتبعه رجلاه، وخرج بكل كرامة وعبر الحشد المجتمع، دون أن يبدو عليه أنه يبالي، ومن خلفه راح الاستهجان والصفير يتبعاه.

همـس «جوانيو» وهو يرتشـق إلى جانب «كوفـان» وكأنه يقذفه بضربة كتف:

- «مهنة قذرة.. لقد أخبرتك يا كابتن: كنت أحب أن أكون مثلك شابًّا يافعًا لخيال المآتة، أكثر من أن أكون مغفلًا..».

السيد دي نافيير

22

عـرضٌ جاد، عند طـرف الطريق المشـمس، أداه هذا العجوز الأحدب، الذي يرتدي ملابسه الأشبه بخيال المآتة، والذي جـاء من ظلمات حديقتـه، السيد «دي نـافيير» هـو بـلا شك

السـاكن الأوحد في «موبيرو» الذي لم يعبـأ لا بـ«باكو» ولا برجال الشرطة، فلديه اليوم شيء آخر يفعله.

فعن بُعد لمح ساعي البريد، فصار كطفل في مقتبل العمر، وابتلت يداه.

- «صباح الخير يا بول. معذرة.. أتمنى أن أسلمك رسالة.. نعم، عندما ستمر، حالًا، رسـالة مهمة.. السيد «دي نـافيير» يخاطب كل أبنـاء البلدة بـلا تكلفة، ولا يعرفهم سـوى بأسـمائهم الأولى». قال «جوانيو»:

- «سوف يحدث هذا».

اختفـى العجوز، الذي تأكد له الميعاد، من جديد وسـط الظلال الخضراء.

يسكن في أقدم ضواحي القرية التي تقع وسط الطريق، في هذه البقعة الخصبة التي تسمى «ليسل»، هذا المبنى المتهالك مثل صاحبه، والمكفن معه أسفل اللبلاب وسط غابته البكر، التي تشبه كنيسة مشيدة في مقابر غير مأهولة بالسكان.

الرسالة التي يعنيها موجهة إلى السيد محافظ متحف كارنفاليه في باريس، كما كتب «... فيما يتعلق بوجود متكامل بالتتابعات، فإن صدفة محببة سمحت لي أن أقوم بمجموعة من الأشياء القديمة معًا.. أتمنى ألا تتبدد رفات الماضي بعدي وسط أدراج ريح الصحراء الأربعة وإلا سوف أقدمها - يا سيدي المحافظ - إلى مزاد علني..».

هذه المجموعة تضم بضعة أمتار من الدانتلا، وإنجيلًا قرضته الفئران، و«جيليه» مطرزًا بالورد على طريقة لوي فيليب، وقطعتين من العملة تم العثور عليهما في المنطقة، وكتاب صلوات حصل عليه السيد «دي نافيير» بعد أبحاث شاقة يفترض أنه يخص كاهن من طائفة الساسونيين.

ومنذ أن تمت إحالته إلى الاستيداع كموظف قديم في مؤسسة ائتمان. قضى جزءًا من حياته يدور حول هذه البقايا القديمة، يرتب مجموعاته داخل دولاب أسود، في داخله يقوم بلصق ملحوظات مكتوبة للقرن القادم.

وهذا الدولاب الجيد الصنع، القديم تم عمله بتاريخ لم نستطع تحديده، في معارض «جويوما» أسطى النجارة في «موبيرو»، تحت إشراف عمي الكبير «ستانسيلاس - لوي دي نافيير» الذي مات عام 1872.. حصل عمي - كملحق بوزارة الفنون الجميلة - على شرف تأدية بعض الخدمات للسيد «جارينيه» المهندس المعماري للأوبرا الكبيرة في باريس، ربما أنه ليس من التهور أن نحدد - على الأقل - القيمة الإجمالية لهذا الدولاب التي تمت المبالغة فيها من صديقه الحميم.

كان من الصعب على السيد «دي نافيير» أن يحدد تاريخ الدولاب، هذا الجسم اللامع بلا سن، لديه عينان جميلتان رماديتان مدهوشتان، أسفل حواجب تشبه القوس، وأنف دهنية، وذقن بيضاء، وصيفًا وشتاءً يرتدي قميصًا قطنيًّا رماديًّا وسترة طويلة بالية، مرتفعة بالبقع القشرية، إنه الوحيد في الدنيا غير معروف الأصل والمصدر منذ نهاية الحرب، يعيش على ديون صغيرة، في داخل هذا الكهف، بصحبة قطة عجوز عمياء، صحبة أقل صخبًا، لأن القطة تجلس دائمًا فوق قطعة قماش، لا تغير مكانها كثيرًا إلا لتذهب لقضاء حاجتها مرة أو اثنتين في اليوم، بالمصادفة في ركن من المكتبة رغم أن الغرفة ليست بها كتب، إنه الاسم الذي يطلقه «دي نافيير» على هذه الغرفة الواقعة في الدور الأرضي، حيث ينتظر نهايته بأقل قدر من الصبر، في متجر مترب، يطل عليه ضوء النهار وتتسرب منه الأوراق، والزجاج الأخضر، ناشرًا ضوءًا ساطعًا.

لقد تآلف مع وحدته، وليس سوى هم الهروب من شيخوخته الطويلة، كي يناضل قليلًا ضد ذهوله، يتكلم إلى نفسه، في صمت ملحوظ بصوت لزج، من ناحية أخرى فهو طويل، يبقى مستيقظًا أغلب نهاره وليله، طارت قواه في بطء ملحوظ رغم أنه يتغذى بشكل سماء، يعيش مثل قطة على القليل من كرات الخبز في اللبن، وكان طاقم أسنانه يتلقلق دائمًا، اشتراه من طبيب أسنانه قبل الحرب، لكن الجهاز الإضافي صار مؤلمًا ولأنه بالغ الفقر لدرجة أنه لا يستطيع إصلاحه، فإن السيد «دي ناڤيير» كف عن استخدامه.

***

فكر «جوانيو»: آه سوف أنسى البقايا القديمة.

إنه ممر، ترك الزمن أثره فيه، حلزوني بين منطقة النباتات الشوكية حتى مسكن السيد «دي ناڤيير». الباب مغلق. وعند العتبة، علبة لبن يحتوي غطاؤها على بعض النقود، تشبه قربانًا مهملًا هناك لخلود بعض آلهة الغابات.

لا يستقبل السيد «دي ناڤيير» زوارًا بالمرة وأيضًا عندما يسمع طرقات مطرقة الباب، فإن قلبه يدق في كل مرة ينهض بسرعة ويلقي حوله نظرة مليئة بالقلق، ويتحقق من فتحة السروال ويفتحها، وهو يسحب نعليه نحو بلاط الممر:

- «ها أنت يا بول.. ادخل يا صديقي.. سوف أسلمك المظروف.. لا تضيعه إنه يحتوي على وصف الاختراع، من نسختين حسب

وصية السير «دي نـافيير».. عضو الجمعية الأثرية للمدينة الكبيرة.. إذا أتيحت له فرصة السفر إلى باريس فيما بعد.. فسوف.. ولكن لا يهم.. هذه رسالتي.. ضعها في جعبتك.. وهذه هي النقود التي جهزتها ثمنًا للطوابع..».

كان لسانه الثقيل يتلعثم في لعابه محدثًا صوتًا أشبه بالضفدعة.. وعلى طرف لسانه الداخلي ظهرت بقايا شراب، متأهب دومًا للهرب كما يبدو، ولكن العجوز يبدو كأنما أصابته حالة من الشعوذة.

قال «جوانيو».. وهو يتفحص المظروف:

- «حسنًا، إنه ثقيل، يلزمه طابعان». دقق العجوز في الرسالة بنظرة متفحصة:

- «طابعان؟.. طابعان لخطاب واحد يا «بول».. هل أنت متأكد؟!».

راح يبحث عن قروش في جيبه، وأخرج ثلاثة قروش من بنطلونه، ورابع من سلته، ثم راح يتذكر إذا كان قد وضع قرشًا على المدخنة، أو درج الكومدينو، وجيب الجلباب المعلق على باب الدولاب، ولحسن الحظ هناك بعض القروش في حافظة قديمة مخفاة أسفل سجادة القطة، وتذكرة غير مطبقة.. لكن هذا هو غداؤهما القادم على الأقل، ولا يجب أن يمسها، مهما كان السبب، الآن على الأقل.

- «انتظر، يا صديقي، سوف أعود».

تذكر فجأة القروش التي يضعها هناك في علبة اللبن لابنته «موريست» كل مساء، عند الدخول بلتر من لبن الماعز الذي يدفعه مقدمًا، خسارة، فسوف يتناول نصف لتر من اللبن غدًا، هو وقطته.

أخذ «جوانيو» النقود، وتوجه نحو الباب، بينما جلس العجوز مذهولًا:

- «النقود، كما ترى يا «بول»، النقود، دائمًا النقود، لقد أردت أن أبيع مجموعاتي.. ولكنني أزدري النقود، إنها شيء يجب ألا يكون موجودًا.. أعرف ما هي، فقد ظللت موظف خزانة ثلاثين عامًا كما ربطت حزم أوراق، وملفات! رأيت الأشياء عن قرب.. رأيت الناس يأتون إلى نافذتي! النقود دائمًا هي النقود.. إنها سبب كل شيء هناك، لقد فهمت كل شيء كما ترى.. تنبهت لكل ما حدث في روسيا.. هل قرأت الصحف يا «بول»؟».

إنه يجهل كل ما يدور في العالم، ولكن انهيار روسيا عجل بموقفه، فهو يحمل فضولًا قويًّا لظلال روسيا.

هناك، الكثير من المال، هناك النقود، لا وجود لها، كل الناس تعمل من أجل أن تحصل على نقود.

ضحك «جوانيو» ساخرًا:

- «حسنًا كما خبرتك، فالأمر لا يهمني..».

- «لماذا؟ هناك يا صديقي، إنها الدولة التي تغذيك، فالدولة هي التي تسكنك وتلبسك وهي التي تربي أطفالك، الدولة تعتني بك لو كنت مريضًا، والدولة تجعلك على قيد الحياة لو كنت عجوزًا.. وتدر لك المزيد من النقود لو احتجت إلى المال.. إنها جادة، أليس كذلك؟ الكثير من الديون، والغباء والقروش من أجل اللبن، المزيد من الافتراضات، والكثير من المساوامات! أنت لديك كل شيء، دون أن تشتري شيئًا! قد تفهم خطأ لكن لم لا. في الواقع؟ إذا تم ترتيب كل شيء هكذا؟ لم لا؟».

قال «جوانيو»:

- «أحب أن أكون هكذا.. «أظل في بيتي.. وأكسب»».

مشى العجوز في إثر العجوز بشكل آلي وهو يجر قدميه، فلديه أفكاره، همس وهو يرمش بعينيه:

- «لا.. لا.. ليس هذا طيبًا ما تقوله يا «بول».. النقود.. ليست طيبة يا «بول».. إنها شيء يجب أن يكون غير موجود.. إذن يا صديقي! لماذا لا تغيرها، ما دامت سيئة؟».

وقف عند الباب المفتوح، ورمش بعينيه، يحمي نفسه من ضوء النهار، بيديه، وجبهته المحنية، ونظر إلى علبة اللبن الموجودة أسفل قدميه، دون أن يهتم بالساعي الذي ابتعد، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه البنفسجيتين.

«.. فقط، حقًّا، نحن نفهم الأمور بشكل سيىء.. وعلينا أن نقبلها، أنا رجل عجوز، ومتعب، أحتاج إلى من يعتني بي، أحتاج أن يحضروا لي اللبن، الدولة تحضره لي.. حسنًا.. لكن ما الدولة؟ الموظفون؟ من؟ جابي الضرائب؟ العمدة؟ لديهم أشياء عليهم إنجازها.. وإذا نسوا لبني؟ وإذا بقيت هنا، بدون لبن.. إذن ماذا؟..».

لاميلي وچوزيف، في المخزن

23

عندما دقت الساعة السادسة مساء في منزل العمدة.. كانت «لاميلي» ترتب منزلها، تخرج الشبابيك، وترفع قبضة باب المدخل، فـ«جوانيو» لا يعود إلى بيته إلا لتناول الحساء، وعندما يمارس بعض الأعمال في منزل «بوس».

بعد أن تلقي نظرة على الحساء تذهب «لاميلي» إلى الصومعة، ماذا تفعل؟ هل تعرف جيدًا؟.. لترى إذا كان الغسيل قد جف.. إنها الساعة التي يعود فيها الصغير من عمله، يعود ليتهندم قليلًا قبل أن يذهب للتسكع في الميدان.

تنتظره «لاميلي» وتفوح رائحة الندى من الصومعة، وأيضًا الكتان الساخن والزيزفون، والفئران.

وعمدًا يقرع الباب السفلي، تنادي:

- «أنت يا «چوزيف»، اصعد لي بكرسي هل تريد؟».

تقدمت إلى طرف فتحة الباب حيث رفعت ريح خفيفة طرف ثوبها الخفيف، ومن فوق الدرج، رفع الشاب رأسه، احمر من الخجل.

تأهبت «لاميلي» لربط الحبل، لكن المقعد الخشبي فوق أرض غير مستوية.. قال «چوزيف»: بصوت رخو:

- «هيا سوف أساعدك».

وبدورها احمرت خجلًا! تعتقد أنها كذلك؟

- «اصعدا أنت أخاف من السقوط».

ويطيعها.

- «شد الحبل، وعقد عقدة أخرى».

كي يبلغ المسمار، مد ذراعه، فبرزت الأوردة في يديه، وبرزت من مؤخرته الصغيرة الناشفة أمام وجه المرآة.. يمكنها أن تلمس صدغه برموشها التي ترتطم، ورائحة فواحة من جسد الشاب، رائحة العمل والأفرول الأزرق، المبقع بالشحم. إنه مبلل الساقين والقذارة تعلو الركبة. تخفض لاميلي عينيها، فقدما الشاب حافيتان، في صندله الأسمر. تتأمل أوردته التي تتدفق تحت هذا الجلد عن قرب.

فقفز من فوق المقعد:

- «تمام».

- «شكرًا».

ابتعدت نادمة، وكأن كل شيء قد انتهى.

وقبل أن تذهب، مسح على غسيلها، وهي تعقد ذراعيها، إنه جاف، تحاول أن تضحك بقوة:

- «لم يستمر هذا طويلًا، بسبب الحر!».

أما هو، وعند الطرف الآخر من الحبل، فذراعاه تهتزان، ينظر إليها بينما شفتاه الطفوليتان فاغرتان عن أسنانه. إنه أصلت، بلا لحية، ولكن تحت ضوء النهار اللامع، فإن خده يبرق، ويلمع عرقه كاللؤلؤ أسفل الفم. يدخل يده في فتحة قميصه ويدلك صدره مثل القرد، دون أن يجد ما يقوله.

تمر أمامه.. والحبل بين يديها.. ويتبعها بعينيه، بينما تنزل السلم وهو يتأملها. يعاود النظر في الممر إلى سروال المرأة الصغير المعلق على الحبل والذي يغازل وجهه، دون أن يأخذ هذا في اعتباره.

في الشفق - هوستين وجاريبالدي -
«جوانيو» والفرخة الصغيرة

24

انتهى اليوم
فـي الميدان، ظـلال الأشـجار، على وشـك الزوال،
تسقط بقع شاحبة دائرية فوق التراب.

***

بعد طعام المساء، ظهر «جاريبالدي»، انسحب الرجل المسموم أمام شـرفة «بوس» مثيـرًا بهجة الأطفال، وبعـض الحرية، دائمًا هم أنفسـهم، سـريعو الملل، يبدو أن حرارة الجو فـي ذلك اليوم بدأت تخف وتتحرك، وتداعب أنصاف الجباه التي يملأها العرق.

ضرب «هوستين» جبهته:

- ««جاريبالـدي»، قدم لنا هذا المسـاء طبق سـلطة جيدًا». اهتز الكلب، وجاء بحزمة من الحشـائش ثم وضعها أرضًا، أسفل قدمي سـيده، أمر «هوسـتين» قائلًا: «خل!». وبسـرعة رفع الكلب مخالبه فـوق خصلتـه. «زيت!» غيـر «جاريبالدي» مخلبه وعـاد من جديد، ضحك، وراح «هوستين» ينزع الشعر:

- «يا إلهي لقد نسيت الملح والفلفل». استدار الكلب، وراح يحفر الأرض بمخالبه الخلفية، ورفع خلفيته تحت الرمل، فصفق بعض كبار القوم ورموا بالقروش التي راح «جاريباللدي» يجمعها ويضعها في جيبه.

***

أمام المكتب، أخذ «جوانيو» وزوجته «لاميلي» النقود، من فوق مقعد، مع «چوزيف» الشاب، إنها الساعة التي يأتي فيها المحالون إلى المعاش لإلقاء رسائلهم في الصندوق، حيث يتبادلون دومًا، مع ساعي البريد بعض الكلمات الودودة، خرجت مجموعة من الشباب، بين الثامنة عشرة والعشرين من حانوت «بوس»، قبل أن يصلوا إلى كومة التبن فوقفوا لمشاهدة الشاب «فرنسيس»، ابن السيد «فرديناند»، وهو يجري في شكل دائري، إنه «المقص الحزين» أصهب صغير، ذو عينين دائريتين، لا يرتدي سوى بنطال من الكتان، وكي يستفيد من بعض الأشياء ضد رغبته الضائعة، يدخل كل مساء في سباق على الأقدام، حول الميدان.

صاح «جوانيو» بحيوية، وهو يحيي رجال الغد:

- «صباح الخير يا شباب..».

هناك الابن الأكبر «چو» المزارع، شجاع، ذو عينين رماديتين، عامل متميز، يدس دومًا عُقب سيجارة في شفتيه، يشعر بالخيلاء

وهو يضع يديه في جيبه على الطريقة الباريسية، هناك أيضًا «نيكولا بوييود»، ابن الحداد.

ضحك «جوانيو» ساخرًا ومبتهجًا:

- «ألا يوجد المزيد من التنورات في القرية لدرجة أن الشباب يتجمعون في المقهى مثل الشيوخ؟».

رد «چو» الكبير واقفًا دون مبالاة:

- «إنهم لا يرتدون ملابس داخلية مثلما يفعل المتزوجون يا سيد «جوانيو»». أكدت «لاميلي»:

- «إجابة رائعة».

ردد «جوانيو»: أنت دائمًا هكذا، لست في حاجة قط أن تشذب لسانك لكن، لقد أخبرتك، أيها الشاب يجب أن تكون أكثر لياقة من أبيك، عندما ستكون مدرسًا في «باس - فوس» هل تعتقد أن هذا الحقير يرفض دخول حديقتي، إنه لوغد. قال «چو»:

- «أنا مدرس في «باس - فوس». سلام».

- «ألا تود أن تبقى في المزرعة؟».

- «أنت لم تنظر إليّ يا سيد «جوانيو»».

- «هذا.. أمر جديد.. أين تريد أن تذهب إذن؟».

- «لا يهم أين.. إلى أي مكان.. ما رأيك يا «نيكولا»؟».

لـ«نيكولا» رأس عنيد، إنه يعمل مع «چوزيف» في محل الحدادة، لأن الأب «بوبيو» لا يقبل مطلقًا أن يدخل ابنه الكتَّاب، ولكنه ينتظر خدماته كي يرحل - دون أن تكون لديه نية الرجوع، ردد بصوت مؤثر:

- «نحن شباب ونريد أن نعيش». ردد ساعي البريد:

- «ونحن لا نعيش.. ربما؟».

شرح «چو الكبير»:

- «نحن لا نردد شيئًا ضد أحد، يا سيد «جوانيو»، علينا أن نكون عقلاء: هنا كل شيء مستهلك.. في المدينة الكبيرة، ومع ذلك فإن العالم لم يتأخر مثلما يحدث في بلدتنا».

في هذه اللحظة، قفز الابن «لوتر» من الدراجة، وسط الدور الأرضي، وهو يحمل سلة دفّأتها الشمس، أرسلتها أمه إلى زوجة «جوانيو»، راحت الرياح تهش على شعره الجميل اللامع، وتجفف العرق الذي انبثق على وجهه البراق الذي اكتسب حمرة.

ردد «جوانيو» وهو يلتفت إلى زوجته:

- «نحن متأخرون بشكل عام، فوسط مئة ناخب، نحن دائمًا صوت من اليسار».

وراح «چو الكبير» يضحك:

- «نحن لسنا من اليسار، ولا من اليمين، يا سيد «جوانيو»».

أعلن «فرانسيس» الذي يقضي أغلب وقته في قراءة الصحف في صالون الحلاقة:

- «لتذهب السياسة إلى الجحيم».

بصق «چو» عقب السيجارة، وسحب يديه من جيبه، وحدق في وجه ساعي البريد بنظرة تخلو من الكياسة.

- «أخيرًا، يا سيد «جوانيو»، سوف ترى، رغم أننا نقوم بالتعليق على بعض الأمور، فإنك تقول: إن الأرض كروية، وإننا يمكن أن ندور معها! نحن أيضًا، لو انضممنا إلى اليسار مثلك».

همهم ساعي البريد، وهو يطوف بناظريه بغضب:

- «اللعنة على الشباب، فاللبن ينسكب أيضًا على المفارش، وهذا يعني أن كل شيء سوف يفسد». ردت «چو»:

- «عين الجمل القديم صار ناضجًا الآن ليس عليك سوى أن تدقق في الفنجان، وسترى أن كل شيء ينحدر». قال «نيكولا»:

- «لن تكف عن النظر فيه يا سيد «جوانيو»!».

اتكأ الصغير «لوتر» على مقود دراجته، وهو يستمع إليهم، وقد انفضت النيران في وجنتيه ولمعت عيناه، أحس بأنه أشبه بمركب شراعي متأهب للإبحار بأقصى سرعته.

وتغيـر «چوزيـف» أيضًـا، حيث قام فجـأة من فـوق مقعده، كي يبتعـد أكثر عـن «جوانيو»، ويكون أكثر قربًا مـن «چو»، و«نيكولا»، و«فرنسـيس»، فالحيـاة التي يحياها هنا، في نيـران الحدادة تبدو له، وكأنها تفوح بنيران كريهة الرائحة.

سـألت «لاميلـي» وهي تشـعر بمعاناة أقـل دون أن تبعـد عينيها عنه:

- «أنت يا «چوزيف»، هل تبصق على هذا البلد؟».

رمى الصبي بكلمته بصوت جهوري لم تألفه «لاميلي» قط:

- «طبعًا!».

***

رئيس المحطة - عائلة لوتر - موريكوت وابنته - عائلة پاكو - السيد دي نافيير

25

اقترب الليل ببطء، بدا كأنه يلف هذا المكان بين يديه من أحضان النهار، وأيضًا القرية، التي تبدو الحياة فيها معلقة، يأمل كل شخص فيها أن يعيش في انتعاش، يقضي لحظته الحلوة حتى وهو يعود إلى غرفته الخانقة، وسريره الدافئ، الرخو، البالغ الضيق.

***

مر قطار الساعة الثامنة واثنتي عشرة دقيقة مساء، والقرية يسكنها الليل، كي تنام، صعد «الرئيس» إلى غرفته، وتخلص أخيرًا من غطاء رأسه، ومن ياقته، ومن جلبابه، ثم جلس على طرف سريره، ونزع حذاءه السميك ببطء، ووضعها الواحدة وراء الأخرى عند قدميه المصابتين بالتشقق.

سطع ضوء السهاري الأحمر في النافذة المفتوحة، لماذا يشعل الضوء؟ لم تنتَبْهُ الرغبة في القراءة هذا المساء، ولا في تصفح ألبومه ذي الطابع البلچيكي الذي أعطاه له ساعي البريد، إنه هناك، الآن

يمكنه أن يقضي أوقات فراغه لأيامه الأخيرة مع هذه المجموعة، ويمكن أن يخصص من أجلها بضع دقائق، إلا أنها لم تثر اهتمامه بعد.

وفي مسافة قريبة، في دفء المصباح المغلق دومًا، راح رجل الفريق الذي حل مكان «فلامار» ليلًا، ينفخ مثل النورج.

***

في أعماق المستنقعات القديمة، تنام القرية الخجولة، يكسوها الظل، والانتعاش. حيث لمعت أول نجمة في السماء عبر الأماكن المأهولة بالسكان. جاءت السيدة «لوتر» من المراعي، حاملة سطل اللبن. ولكن، لا رقة المساء ولا عزف الأكورديون القادم من حولها وهي تقترب من المنزل استطاع أن يترك أثرًا في وجهها الجاف، فهي امرأة بلا أحلام، في حياتها التي كرستها من أجل أن تكسب.

أنهى «لوتر»، والعسكري الألماني «فريتز» عملهما، وملأت سلال البطيخ الشاحنات الصغيرة من أجل شحنها غدًا، كانا جنبًا إلى جنب، فوق مقعد صنعه «فريتز»، ثم استراح الرجلان، انتابت الباقاري حالة من من الحنين، وهو يمد يده خفية، إلى رقبته الخالية من الشعر، ثم دخل على الأكورديون رغما عنه، وأصدر عنه نغمة جميلة، أصاخ الأذنين، إنه

لا يعزف إلا لنفسه، وفي الليل الساكن، كرر «لوتر» بصوت خفيض - دون أن يفهم - كلماته الغريبة التي يسمعها دومًا منه، وضعت السيدة «لوتر» السطل فوق المقعد، ويداها على مؤخرتها، وظلت ساكنة للحظة، لا شيء يدل على أنها تستمع إلى الموسيقى، ومن حولها انبعثت رائحة اللبن الطازج مختلطًا بالأرض الساخنة وبالقمامة، والبطيخ، قالت دون أن توجه كلامها إلى أحد:

- «غدا.. يجب أن نبدأ في جميع بقوليات الجلبان».

***

خلف الكوخ، انطلقت «موريسوت» وابنتها نحو المنحدر، وقد تأخرتا عن ساعة العودة إلى القاعة حيث يتفشى السل.

غنت «موريسوت» أغنية بلجيكية، مؤكدة أن الصغيرة لن تثير أية قضية، وترتكب أي شيء! قالت الأم:

- «إذا كنت بدينة حقًّا، فالحل الوحيد، هو أن أتركك تجرين وراء الشابين «ميرلالفين»، ثم أذهب لتكسير القطعة، وأرد على الآخرين.. لكنني أود دومًا أن أحكي ما جرى هنا إلى أن أموت، حيث سأظل أصلح لك الأشياء حتى تبلغي العشرين».

سمعت الفتاة البوهيمية، المتمددة على ظهرها، ويداها تحت عنقها، وهي تفكر مشمئزة في الخبازين الملتحين، فكرت أيضًا

في «جوانيو» ساعي البريد، وغاصت بساقيها العاريتين في العشب الطازج، ثم حدقت في السماء الممتدة، وفي النجمة الأولى التي سطعت.

***

نام فوق سريره الحقير، وهو يعض غليونه المنطفئ دون أن يفكر في شيء، إنها نفس النجمة التي ينظر إليها الأب «باكو» من خلال المنشفة المثقوبة، بين دعامتين، هل تهتز النجمة أم أن جفنيه يحترقان؟ تختلط رائحة البرميل برائحة بقايا الحساء الذي ينبعث من القصعة، وبالخارج تطلق البومة كل مساء نعيقها، وترحل باحثة عن صيد.

وعلى الجانب الآخر من الجدار، يسمع العجوز ابنه، وابنته، التي يكرهها أكثر مما يخشاها ويثور وينفخ، دون أن يتمكن من النوم، في السرير الكبير بالقاعة! السرير الذي ظل ينام فوقه أربعين عامًا، منذ أن كان مدرسًّا، حتى أصابته الشيخوخة، السرير الذي أصابته فيه صرعة بعد أن قتلت الحرب ولديه.

وفي الحشايا تمدد الكلبان اللذان تخلصا من قيدهما، وراحا يزمجران تاركين خلفهما كل صدى المساء، كل أفراد أسرة «باكو» الثلاثة، يحلمون بالانتقام، وقد غلت الدماء بالحقد، وتأهبوا لرصد أقدم الأصوات من حولهما.

***

في المكتبة.. يبدو الغروب مبكرًا عن أي مكان آخر. إنها الساعة التي لا يمكن تمييز النباتات عن جدرانها، وحيث تصبح المرآة مربعًا من الضوء، إنها الساعة التي لا يحبها السيد «دينانير» مطلقًا.

يوقظ اقتراب الليل عند العجوز قلق الانتظار، وإحساسًا بالفراغ، يشبه دوامة الجوع، يتساءل إن كان قد نسي شرب اللبن، في رأسه، وفي أعضائها الساكنة، تمر مثل الذبذبات، وتنتابه الرغبة من جديد، أن يذهب إلى أشخاص مجهولين، أفضل، موجودين في أي مكان، ولكن في الوقت نفسه، دون ندم ومع تخفيف المعاناة - يحس أنه غير قادر على بذل مجهود، لقد تأخر كل شيء، لعل هذا أفضل.

وبدافع الاقتصاد، فإنه يؤخر لحظة إشعال مصباح الغاز، وغالبًا ما ينام في الظلام، وينسى أحيانًا أن ينام، وعند الصباح، يجد نفسه في غرفته القديمة، يتكلم إلى نفسه، يداه فوق ركبتيه، وقطته تحت قدميه، وطوال ساعات، يمكنه أن يحرك ساقيه، في فمه الجاف بلا تعب، وهو يفكر، لأنه يحب التفكير ويخاطبه، وفخور به، إنه يفعل ذلك بصوت عالٍ...

النقود، النقود، هي سبب نكسة كل شيء، والنقود شيء يجب أن يختفي، لكن كل الناس تريدها، الخباز وموظف الضرائب، وساعي البريد بطوابعه.. النقود دائمًا، ولا أحد ينالها، وهذا ما يسيء إلى الأمر أكثر.. قديمًا كان يمكن أن تختفي ولكن الآن، فالعالم، والسياسة، لن يستمر الأمر طويلًا هكذا.. إذن؟

لماذا لا يتغير العالم؟ لماذا لا يتغير ما دام أن هذا لن يحدث؟

يفكـر في اللبن الـذي تدبره له الحكومـة دون مقابل، وفي طاقم أسنانه الذي تعده له الدولة، دون اللجوء لساعي البريد، ومن جديد، سيمكنه أن يمضغ ويعض طرف الرغيف الطويل، ثم يضحك، ليس أمامـه سـوى الحلم، إنه شـيء رائع، يبتلـع لعابه محدثًـا ضجة كأنه يقضم لقمة ناشـفة.. ثم يعلو كل شيء، ويسـقط الرماد فوق القرية، وفـوق المنزل، وفوق المخ، ينام بضع دقائق، ثم يعاود الاسـتيقاظ، ويـدرك أنه ما يزال فـي بيته - كالعادة- والقطة فـي مكانها، ويحس بالارتياح، ويعاود التفكير: النقود، صديقتي النقود...

كم هو سعيد.

***

تأمــل الخوري

26

راحــت ظلال الليل تزحف شــيئًا فشــيئًا فــي فناء بيت الكاهن، حول حقل الكاموميل، وقد استظل بالقديس أنطوان، والآنســة «فيرن»، مســاعدة الآنســة «ماسو»، والسيدة «سيكاني»، اللتــين

عــرَّفتــا «سلســتين» إلــى السـيدة «كيــرول» بأعلــى، فــي غرفته فإن الســيد القس يروح ويجيء حول ســريره القريــب من المدفأة يحس بالعصبية، إنه لم يسمح بالجثو على ركبتيه أثناء صلواته.

صعد صوت السيدة «كيرول» إليه عبر النوافذ نصف المفتوحة:

– «آه لو تدركين الأشــياء التي يُحكى عنها في الفصل، بحجة أنه علم الحيوان». تنهدت الآنسة «فيرن»:

– «إنها مدرسة بلا رب».

ردد «سلستين» في تخوف:

– «مدرسة بلا رب».

***

العينان نحو الأرض، والذقن فوق الصدر، والذراعان معقودتان، راح القس يبحث عن شيء يلملمه.

«يا إلهي اغفر لي شجاعتي المفقودة فأنا أختنق.. أعرف جيدًا أن كل العمال لم يتم استدعاؤهم إلى مزرعة السيد لقضاء حاجاتهم وأن الكثيرين منهم يجب ألا يعرفوا لذة البيع والشراء، وأن مكافآتهم ستكون أكبر مما ينتظرون بكل ثقة ودون أن يهمسوا.. لكنني ألماني.. أؤدي واجبي الذي اخترتني له بكل ما بوسعي. يجب أن أحب مستقبلي وسوف أجد في نفسي الحب أقل من المرارة.. ساعدني أن أحب هذا الجيش الملحد. هذا الجيش الجاحد، هؤلاء الذين طردوك من منازلهم، ولم يعد لك مكان لديهم. ولا في حيواتهم ولا في مصائرهم التي تنتظرهم أواخر حياتهم، ولا كيف أن هذه الحياة بالغة القصر! يجب أن يشكوهم إليك، لا أمتلك سوى أدائهم.. وحقدهم! يا إلهي اغفر لي.. هل يجب أن أكون أكثر قوة منك؟ لقد قلت: أنا رحيم بهم جميعًا وأنت الذي قلت أيضًا: اغفر لهم، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون..».

***

بأسفل، تتابعت أحاديث القديسات، حكت الآنسة ماسو:

- «اشتريت له نبات الحميض وفي المساء لن تكون الأسرة جاهزة».

وأيدتها الآنسة «سيكاني»:

- «أراهم من نافذتي. دققوا. إنها كسولة للغاية، وزوجها يستيقظ في الصباح كي يعد قهوته».

أعلنت السيدة «كيرول»: أنها مغفلة. ومسرفة وترمي كل ما يكسبه زوجها فوق ظهرها.

رددت الآنسة «سيكاني»:

- «ليس هـذا مثل الأخت إنها ترتدي دائمًا ملابس الفقيرات».
تدخلت الآنسة «فيرن»:

- «علـى العكـس فلديهـا لسـان الأفعى! تـردد دائمًـا كل ما هو سيئ».

كررت «سلستين»:

- «نعـم، لسان الأفعى».

***

راح القس يبحر عبر غرفته، انحنى فجأة أمام صليبه:

«يـا إلهـي، بمـاذا أجيبك وأنت تحاسـبني عما فعلتـه في مهمتي التبشـيرية؟ كيـف تغفـر لـي أفعالي فـي وظيفتـي ومشـاعري تجاه المؤمنيـن، لمـن الخطيئـة إذا لـم تكـن جرائيـم فـي هـذه الأرض الخصبة؟ بلا شـك، قـس آخر أقـل إيمانًا يعرف كيـف يرفع البذور

الطيبة.. إذا كان حماسي أكثر كبرًا، وكرامة من ثقتك، وحبك لي، فإنك بلا شك، ستعرف هذه الجبال الملحدة، فأنت تعرف كيف تغير الأرواح المظلمة بالشعلة التي وضعتها في قلب عبادك.. لأنهم كلهم عبادك، يا إلهي ليس هذا سوى انعكاس لمهابتك..».

***

من الفناء، انطلق صوت الآنسة «فيرن» الحاد:

- «لقد أعلنها الأنبياء: عندما ستمشي السيارات وحدها، وسيطير البشر في الجو وعندما يُرِدْن النساء أن يعشن مع الرجال، فسيحكم على العالم بالنهاية، وستحل القيامة».

***

قام القس، وبكل هدوء أغلق نافذته على ذلك العالم المدان.

السيد إنبرج وأخته

27

منــذ أمــد طويــل، كان علــى الســيد «إنبــرج» أن يترك دراســته الخاصة وقراءته. حماه، الذي يسكن المدينة الكبــرى، يديــر لــه احتياجــاتـــه الرئيســية، وفي كــل مســـاء، وفي منتصـــف الليل نــرى هذا المعلم وقد جلس أمــام مصباحه، الضوء الوحيد المنبعث في القرية المظلمة يســطر مسودات النشرات العلمية حول الأدوية، والأسمدة التي يرسلها إلى معامل المنطقة.

وفــي الصيــف، وقبل أن يبدأ عملــه، يجلس لبعــض الوقت أمام عتبــة الفصل على مقربــة من أخته. وأمامهم، فــوق الأرض الطينية، التي صارت رمادية، لا يمكن تمييز ظلال الكســتناء، قد تسقط ثمرة ناضجــة وتندفــع من قرنهــا في انفجــار كتوم تقول بصــوت خفيض للسيد «إنبرج».

- «هذه الثمار كسرت لي «البلاط»».

وأقل إصلاح يتطلب كتابة تقرير ومقايســة: ســيدفع ثمن البلاط مــن جيبه قبل الشــتاء. ودائمًا المدرس لا يــراه أحد يرد بعد صمت،

سوف تنتهي السنة الدراسية، مثلما انتهت كل السنوات السابقة دون أن يأتي أحد كي يختبر جهوده، أو يشجعه على ذلك.

في البداية تحت سقف منخفض، في غرفة بالغة الصغر على السرير الكبير، والمهر، كان الأطفال يبكون، وقد أرهقهم الحر، دفعت السيدة «إنبرج» ابنتها الكبرى نحو النافذة، وبلا رحمة، راحت تقص شعرها، حدقت الطفلة - بعد أن فقدت صبرها - بينما لمع وجه الأم بالعرق، وهي تصرخ وتهدد، يصفعها في الظلام، هناك غلام، يضرب بيديه في الجردل، حيث اللفافة القذرة، وفي أعماق المهد كي يجذب الانتباه إليه، غضب الرضيع، وهو يضرب في الهواء بكل قبضته.

وظلت الآنسة «إنبرج» أكثر صمتًا من المعتاد، قالت:

- «هيا يا أختي».

ردت المدرسة بحركة بطيئة للغاية، شرحت:

- «استيقظت الآنسة «كيرول» يا لها من امرأة، قالت لي: الطفلة تعرف كل شيء فيما يخص مستقبلها! لا تريد أن تصير موظفة، على الأقل لتكن مدرسة!». وسمع السيد «إنبرج» ضحكها الساخر.

انبعثت ضجة، أغمي عليها بين جدران الفناء ثم سمعت خطوات على الطريق، عبر الحاجز الحديدي، وظهر شبح خيال المآتة الذي عاد من جولته، وقد غطى عينيه بالكاب وحمل عصاه في ذراعه.

أضافت الفتاة:

- «سوف أرغمها على أن تعمل بدون مقابل».

لـم تقل كم هي متعلقة بهـذه الصغيرة، إنها المـرة الأولى، خلال سبع سـنوات، تلتقي فيها تلاميذها. بطبيعتها راغبة في التدريس وأن تربي الآنسة «إنبرج» التي داعبت حملها، وأن تمارس سطوتها المهنية عليهـا، وأن تشـكلها، وأن تثيرهـا بالاتصـال بها. هذه هـي مكافآتها للسنوات السبع، بشكل خصب.. تسكب الدموع من عينيها، تتساءل هـذا المسـاء إذا كانـت قد ضمت بـكل نقاء في شـبابها بقلـب امرأة ومشاعر الأمومة التي منحتها السعادة.

صرصـرت النقالـة التـي يصحبهـا صبـي يعرفـه «إنبـرج»، إنـه الصغيـر «فيجو» ابن عامل السـكة، أطلق المـدرس ضحكة، ونظرة علـى تلميذه، لكـن الطفل مر وهـو يصفر، دون أن يدير رأسـه نحو مدرسته.

وكأنهم يفكرون في الوقت نفسه في الشيء نفسه، تنهدت الآنسة «إنبرج»:

- «هل تعتقد، أن الأمر متشابه في كل أنحاء فرنسا؟».

ومـن أجـل إجابة مثالية، فإن السـيد «إنبرج» طرقع طرف لسـانه مـرات عديـدة بأسـنانه مثلما يعمـل في الفصـل من أجل أن يسـود الصمـت، هنـاك أفكار عليـه أن يعلنهـا بوضـوح، إذا احتفـظ دومًا بشجاعته.

وحل الليل تقريبا.

طـوال بضـع دقائق، ظـل الأخ وأختـه سـاكنين، كل منهما على مقربة من الآخر، يظله الظل، وبسرعة انزلق ضوء من الأفق.

همست الآنسة «إنبرج»:

- «ضوء الحرارة».

- فكر المدرس في عمله وتلاميذه، وفي حصة الإملاء في الغد، كل شـيء متأصـل في داخله، هذا الإحسـاس الـذي يدفعه لإنجازه واجبه، وأن يعمل كل يوم أكثر، وأفضل من البارحة.

تحلـم الفتـاة بوحدتهـا، وبالحيـاة فـي هـذه القـر ية، وفـي هذه الإنسانية الحيوانية التي تسبح نحو الحضيض، «لماذا العالم هكذا؟ هل هو خطأ المجتمع؟».

احتفظـت لنفسـها بقلـب واثـق، وبالكثيـر مـن العبقريـة، التـي لا تجعلها تشـك في طبائع البشـر، لا، لا! ليحكـم مجتمع جديد - أفضل - منظم، أقل إثارة وأقل ظلمًا وسوف نرى أن الإنسان يمكن أن يصير أفضل في النهاية.

ومـا أن بـدأت السـاعة تـدق التاسـعة فوق رؤوسـهم حتـى قام «إنبرج» وردد:

- «عمت مساء، يا شقيقي».

مسـحت على جبهته دون أن ترد، لن تذكر مثلها النوم الثقيل في الليلة الماضية، وفجأة، عاد إلى ذاكرتها كابوس من العبث كانت قد نسـيته تمامًـا، وراح أخوها يتمدد فوق السـرير بملابـس نومه، وهو يخنق زوجته في صمت بحبل غسيل.

قبل أن تقرأ

روجيه مارتن دوجار Roger Martin Du Gard

في عام 1937م، عادت جائزة نوبل مرة أخرى إلى فرنسا. وذلك من خلال كاتب أقل شهرة في عالمنا العربي. قياسًا إلى أقرانه الذين فازوا بجائزة نوبل، وهو «روجيه مارتن دوجار»..

وحياة «مارتن دوجار» هي أدبه، كما أن أدبه هو حياته، فليست هناك أحداث مهمة في سيرة الكاتب سوى إبداعه، فهو من مواليد مدينة «نويللي» في 23 مارس عام 1881م في أسرة ريفية.

كان الأب «بول» يتمتع بثراء ملحوظ، مما سمح للابن أن يكتب رواياته وأدبه دون أن يضطر إلى ممارسة أية مهنة أخرى من أجل توفير لقمة العيش. وهي سمة بدت واضحة لدى الفائزين بجائزة نوبل مثل «توماس مان»، حصل على البكالوريا عام 1900م ومن أجل الهروب من الخدمة العسكرية. دخل مدرسة الميثاق الدينية لمدة ثلاث سنوات. ولم يستفد قط من الشهادة التي حصل عليها طيلة حياته. وفي عام 1906 تزوج من فتاة ثرية. وبدأ يمارس الإبداع. فكتب عددًا من الروايات التي لم يتمكن من الانتهاء منها، ثم نشر

رواية ذاتية تحت عنوان «أصبح» تناول فيها أفكار أبناء جيله. ثم جاءت روايته «جان باروا» التي تحمس لها الناشر «جاليمار».

ارتبط «دوجار» بصداقة مع عدد من أبناء جيله مثل «أندريه جيد»، و«كوكتو»، و«شلومبرجر». وفي أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى توقف عن الكتابة. كرس كل وقته لتأليف روايته «التيبو» التي استمر يكتبها طوال عشرين عامًا، نال أثناءها جائزة نوبل في الأدب. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كان عضوًا نشطًا في المقاومة، هو الذي هرب إلى مدينة نيس حيث عكف على كتابة رواية جديدة هي «الملازم - الكولونيل مومور» التي لم ينته منها ونشرت لأول مرة عام 1983م..

يقول الناقد الفرنسي «رينيه جارجيلو» المدرس في جامعة باريس: إن دوجار قد اكتشف حلاوة الأدب في سن التاسعة، حينما أعطاه أحد زملائه كراسًا بها قصص قام بتأليفها. وقد تكثفت قراءة «دوجار» في هذه السن في مجال الشعر. ثم ما لبث أن هجره حين قرأ رواية «الحرب والسلام»، وهو في السادسة عشرة. والجدير بالذكر أنه في خطبته التي قرأها أمام أكاديمية استكهولم عام 1937م اعترف بفضل «تولستوي» عليه. إلا أن هناك أربعة أدباء آخرين كان لهم نفس التأثير عليه، هم «جان جاك روسو»، و«مونتيني»، و«هنريك إبسن»، و«رومان رولان». حيث كانت الأعمال الكاملة لكل منهم مرتبة في مكتبته، بالإضافة إلى أعمال «بلزاك»، و«فلوبير»، و«زولا»..

وعندما بدأ الإبداع عام 1900م أراد أن يكون كاتبًا من كل أعماقه. وفي عام 1901م كتب روايته، التي لم تكتمل، المعنونة بـ«البللوري» حول شاب يحاول أن يعلم امرأته الأخلاق الحميدة، وهو يخلصها من كل التزمت الذي يجثم على صدرها..

وفي عام 1906م كتب رواية «حياة قديس» حاول فيها تأريخ حياة رجل دين. وقام بإعادة كتابة الفصول الأولى من الرواية عدة مرات. ثـم لم يتمكن من تكملتها وأحس أنه لـن يكمل حياته الأدبية إلا إذا كتب شيئًا مختلفًا..

وفـي عـام 1908م وجد أن أفضل شـيء هو أن يكتب عن نفسـه. فجـاءت روايتـه الذاتيـة «أصبح»، وبطـل الرواية هو شـخص حالم يحن لأن يكون أديبًا. إلا أن طبيعته وتربيته تمنعه من أن يفعل ذلك، ولكنه في النهاية ينجح..

وقـد كان «دوجـار» دقيقًـا في عمله، حيـث راح يجمـع الوثائق والمراجـع الخاصـة براويته «جـان باروا» طوال ثلاث سـنوات قبل أن يكتب فيها سـطرًا واحدًا. و«بـاروا» هو طبيب، حصل أيضًا على شـهادة في علوم الطبيعة وأصبح مناضلًا في مجال الفكر، فاشـترك في النضال الاجتماعـي، وانضم إلى «إميل زولا» في قضية الضابط الفرنسي الشهير «دريفوس». ويعتبر النقاد هذه الرواية بمنزلة العمل الإبداعـي الأيديولوچي الأوحـد في ذلك العصر، وأهـم الروايات النضالية في القرن العشرين..

وأثار الشكل الروائي كثيرًا الكاتب «مارتن دوجار»، فراح يختار صياغات متعددة، وجديدة استفاد فيها من فنون التصوير والسينما، وصنع ما يسمى بروايات الحوار، التي تجمع بين الحوار الداخلي، أو الحوار المتبادل. وقد دفع هذا الناشر «جراسيه» إلى رفض هذه الرواية قائلًا: «إنها أقرب إلى ملفات التحقيق»..

لكن الكاتب وجد مساندة من الناشر «جاليمار». خاصة بعد أن كتب له «أندريه جيد» برقية شهيرة جاء فيها: «إنها المسودة الأكثر روعة، فانشرها بلا تردد، ثم أضاف في برقية أخرى: «إن من كتب هذه الرواية لا يمكن أن يكون فنانًا، بل مقدامًا»..

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى شُغِلَ «دوجار» بالكتابة للمسرح. وقدم «وصية الأب لولو» عام 1940م ومسرحيات أخرى، كما كتب مقالات. وذلك قبل أن يكرس عشرين عامًا من حياته لتأليف رواية «التيبو» وهو اسم نوع من الأقمشة. لكنه هنا في المقام الأول اسم أسرة..

وكعادته راح يجمع الوثائق والمراجع التي تساعده في عمله الجديد. وقبل أن يشرع في تأليف الرواية كتب لها سيناريو، أسوة بالسينمائيين، في أربعين صفحة..

وقد صدرت الرواية تباعًا كلما انتهى من كتابة جزء من أجزائها، وهي رواية نهرية ضخمة، تتبع حياة أسرة «التيبو» بداية من عام

1904م وحتى عام 1940م. فنحن أمام أربعة أجيال متتابعة يتسلم كل جيل منها الراية ممن سبقوه. وهناك أسرة أخرى هي أسرة «فونتين» ارتبطتا فيما بينهما بصداقات، ثم دخلتا في صراعات مريرة. وفي هذا النوع من الروايات كثيرًا ما نجد أنفسنا أمام شخصيات عديدة وأحداث لا تنتهي. وقد كان في نية الكاتب أن يستكمل كتابة هذه الرواية لولا المرض الذي أصابه قبل نهايتها، فبدت رغم ضخامتها وكأنها رواية لم تكتمل بعد.

ومثل هذه الروايات تبدو كأنها سجل لحياة أسرة. أو بمنزلة وثيقة لمأساتها، وسعادتها. ويقال إن الكاتب استوحاها من هذا الكتيب الصغير الذي أهداه له أحد أصدقائه وهو في سن التاسعة. فكان فاتحة له لدخول عالم الأدب..

أما آخر رواية للكاتب فهي: «الملازم - الكولونيل مومور»، وهي أقرب إلى يوميات مناضل، صاغها الكاتب فيما يشبه القاموس أو الموسوعة.. فكل ما يتعلق بحياة بطله موجود في صفحات محددة. وعلى سبيل المثال فإن ما يتعلق بحياته الدينية موجود في صياغة روائية في فصل منفصل عن حياته السياسية، ولا شك أن هذه الحياة التسجيلية هي أيضًا توثيق للعصر. ورغم أن الرواية لم تنتهِ، إلا أنها شاهد جيد على العصر الذي تتناوله، بالإضافة إلى أنها من أولى التجارب الشكلية في هذا الطراز من الرواية.

وافته المنية في 22 من أغسطس عام 1958م.

«لسنوات عديدة.. شعب فرنسا الصغير استطاع أن ينحني دومًا داخل هذه الكنيسة المقامة الآن، تُرى ماذا يحبون فيها، هل هو الحب، أم الأبحاث، أم الحاجات الروحية البالغة الضمور؟.. أم هي الخشية؟ الخشية من الله، والخشية من رجال الدين؟ والتخوف المألوف من المصير المحتوم؟».

سلسلة «روايات جائزة نوبل» إطلالة على أهم الروايات التي حصل كتّابها على جائزة نوبل فرع الآداب، لما تحمله هذه الروايات من إبداع ينقل القارئ إلى عالم آخر مليء بثقافات وتجارب مختلفة لتنوع اللغات المترجم منها الروايات، مع اختيار دقيق للمترجمين الأفذاذ، وتقديم مقدمات وافية عن المؤلفين والروايات؛ لنثري عالمنا الأدبي العربي بهذه الثقافة الرافدة؛ وليطلع الشباب والكبار على أهم أعمال هذا الأدب المترجم إلى العربية.

9 789774 277931

الدار المصرية اللبنانية